www.mlazna.com-RAYAHEEN

الساحة الدموية

- ١ -

بدأت حفلة مصارعة الثيران .

ونفخت الابواق ايذانا بابتداء الحفلة .

وجلس بارداليان في المكان الذي خصصه له المفتش الاعظم اسبينوزا لغاية في نفسه .

وكان الثور الاول من حظ ذي اللحية الشقراء ، والثاني لواحد من النبلاء ، واما الثالث فقد خصص للدون كارلوس الملقب بالتوريرو .

وقد ارتدى ذو اللحية الشقراء في هذه المناسبة افخر ثيابه .. وتقلد افضل سلاحه ، وامتطى جوادا اصيلا ، ونزل الى ساحة الصراع يحيط به عشرة من رجاله الاشداء .

كما كان هناك عدد وافر من العمال والخدم توزعوا في ميدان المصارعة لنقل الجرحى والموتى ، وامامهم اكياس الرمل لطرحها فوق الدم حتى يحجبوا منظره عن الناس .

وكان الجميع يعلمون ان الثور الاول لا يلبث ان يظهر بعد نفخ الابواق ، فأسرع النبلاء الذين طافوا حول ذي اللحية الشقراء يهنئونه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

على سلاحه ، ويثنون على جرأته .. يغادرون الساحة ، فيما استعد رجاله لاستقبال الثور الذي كان سيتوجه اليهم بهجمته الاولى .

وظهر الثور اخيرا الى الميدان .

وكان بديعا اسود اللون ملطخا بالبياض ، ضخم العنق كبير الرأس قوي العضلات طويل القرون ، وقد لمعت عيناه باشعة الحقدوالغضب العظيم .

وكانوا قد اقاموا الثور في غرفة مظلمة فلما ظهر في الساحة ، وشاهد النور تريث في مكانه لحظات حتى تبين موقع اقدامه فهتف له الحضور، وكانت الشارات المختلفة الالوان معلقة فوق قرنيه ، وعلى ذي اللحية ان ينتزعها من مكانها بسنان رمحه ليتم انتصاره ، وهو حر في قتله او تركه.

ولما ظهر الثور اجال في الحضور نظره وهو يتوقد غضبا وحنقا ، فأبصر الفارس واقفا ينتظره ، فانقض عليه، وكان ذو اللحية ينتظر هجومه هو ورجاله ، فتلقوه بثبات وجرأة .

وبدأت المعركة بين الثور وخصمه .. واصاب رمح الفارس القسم الاعلى من عنق الثور ، وحاول ذو اللحية ان يجعل الثور يقف عن يمينه، ولكن الثور ازداد حنقا وغيظا بسبب الجرح الذي اصابه فشد على الفارس وجواده شدة قوية حتى خيل للجمهور ان الثور سيخرج غالبا منتصرا .

ولكن جواد ذي اللحية ذعر من هول المفاجأة ، واخذ يركض في الجهة المعارضة ، فجمد الثور في مكانه ، بعد ان اختفى عدوه من وجهه .

وكان ذو اللحية قد وصل فوق جواده الى الحاجز الواقع في آخر الميدان ، بينما اخذ الثور يركض الى الطرف الآخر فذعر رجال ذي اللحية لهذه الحركة المفاجأة ، واخذوا يهربون بدورهم .. مخافة ان يصرعهم الثور الهائج بقرنيه .

واخيرا توقف الثور عن الركض لما لم يشاهد احدا في طريقه وكان الغضب قد اعماه وافقده رشده ، توقف ينتظر من يهاجمه .. وايقن الحضور ان المعركة الثانية ستكون اشد هولا من الاولى .

ولما ادرك ذو اللحية الشقراء قد جمد في مكانه ، ولم يتقدم لمهاجمته تسالك نفسه واخذ في احساسه بالكلام ، ولكن الثور كان يراقب فرصة من عدوه ، فلم يحاول مهاجمته كما كان يتوقع ذو اللحية منه ان يفعل .

واخيرا اضطر ذو اللحية ان يتقدم الى الثور ويقترب منه ، فانقض عليه الثور عندئذ بسرعة محاولا حمله على قرنيه .

وقفز ذو اللحية الى الخطر فحمل جواده على القفز الى الجهة اليسرى متفاديا اصطدامه بالثور ، فدل بعمله هذا على طول باعه في المصارعة ، وعلى عظم جرأته وحيلته .

واخذ الحضور يهتفون ...

واختلفوا فيمن يكون الظافر في المعركة ، فبعضهم ذهب يؤيد الثور .. وآخرون نادوا بانتصار ذي اللحية .

كان الثور يريد قتل خصمه ، وخصمه يريد انتزاع الشرائط من قرنيه ، وقد تمكن فعلا من انتزاعها برأس رمحه واسرع يعدو بجواده الى الحاجز .

وهتف الحضور له على نجاحه ، وكان باستطاعته ان يكتفي بهذا النصر، ولكنه اراد قتل الثور ، ليجمع بين الفخرين، فخر انتزاع الشرائط ونجاحه في قتل الثور ايضا .

وكان السبب في هذا الفشل الذي اصابه من (باردالیان) فأراد تعويضه بانتصاره على الحيوان .

وكان الثور يراقبه ، لا يستبق الحوادث ولا يريد ان يتعرض للفشل

www.mlazna.com
AHEENA

الذي تعرض له قبلا .. فتركه يدنو منه حتى اذا اصبح قريبا تحفز للهجوم عليه .

ولما انقض الفارس عليه تحول الثور الى الجهة اليمنى فنقر بطن الجواد بقرنيه ورفعه الى اعلى ثم القاه بعيدا ، ولما كان ذو اللحية مثقلا بالحديد فقد كان سقوطه سريعا واغمي عليه .

واسرع رجاله يريدون انقاذه ، فتحول اليهم الثور ليردهم عنه .

وقد اشتد غضبه وعظم هياجه ، حتى خافه رجال ذي اللحية فتركوا صاحبهم وشأنه .

★ ★ ★

علت اصوات الحضور من النساء والرجال حين تأكدوا ان ذي اللحية اصبح لمصيره المرعب مع الثور الهائج الثائر .

والتفت الملك الى اسبينوزا وقال له :

ـ اظنك ستحتاج الى قائد جديد يقوم بخدمتي .

وتقدم الثور نحو الرجل الممدد على الارض ، واغمض كثيرون من الناس عيونهم .

وفجأة علت الاصوات تقول :

ـ يحيا النبيل الشجاع .

تطاول الملك المفتش الاعظم وفوستا ليروا سبب هذا الهتاف ، فأبصروا رجلا يقفز الى الميدان ، لا يحمل غير سيفه في يده اليسرى ، وقد تقدم نحو الثور ، وحال بينه وبين ذي اللحية ، فساد الساحة صمت رهيب وهتف الملك يقول :

ـ الفارس بارداليان .

وبدا الملك دهشا حائرا ثم اردف يقول :

ـ ان هذا الرجل مجنون بالتأكيد ، وهو يعطيني مجانا ما كنت سوف اشتريه بالثمن الغالي ، واظن ايها المفتش الاعظم اننا سنتخلص من هذا الرجل بطريقة لا يمكن ان يتهمني فيها ابن عمي هنري ملك النافار بأني كنت ضالعا بها .

وأيد المفتش الاعظم قول الملك .

وعارضتهما فوستا وقالت :

ـ اني واثقة ان بارداليان سيقتل الثور ، لانه رجل يرهبه الموت ويخشى بأسه .. وسوف ترون .

وكان الثور قد انتصب فجأة لما شاهد العدو الجديد ، ثم حنى رأسه وسدد قرنيه الى صدر خصمه ، وانقض عليه بسرعة بالغة .

ولم يتحرك بارداليان من مكانه .. واستقبل الثور بسيفه ، وجمد الثور على الاثر في مكانه .

ومرت على الحاضرين ساعة رهيبة .. ولم يفطن احدهم لما جرى ووقع .

هل اصاب بارداليان الثور ؟ وما سبب عدم الحركة ؟ ولماذا جمد بارداليان في مكانه ولم يضربه ثانية ؟

واما بارداليان فقد شاهد سيفه يخترق جسم الثور .. واحس ان الحيوان اخذ يرتجف ويضطرب .. ولكنه لم يكن واثقا من خطر الجرح الذي اصاب به الثور وهل هو مميت ، ام انه خفيف فيعمد الثور الى مهاجمته من جديد ؟

وقرر بارداليان ان يعرف الحقيقة حالا .

فسحب حسامه من جسم الثور فظهر للجميع ملطخا بالدم .

وسقط الحيوان على الاثر الى الارض ، فقد كانت ضربة بارداليان

مميتة ، واذا لم يسقط قبلا ، فلأن باردالیان كان ممسكا له بحسامه ، فلما رفعه منه هوى ميتا .

لقد كان الجميع الا اقلهم يتوقعون موت باردالیان .. فلما تغلب على الثور عمت الناس موجة من السرور والفرح .. فراحوا يهتفون ويصيحون ويبكون يضحكون .

واخذ اكثرهم يحيون باردالیان ويهتفون له ، بينما كان هذا في شاغل عنهم ، وقد اسف لقتله الثور المسكين ، معتبرا صاحب اللحية اكثر منه شرا وخطرا .

والتفتت في هذه اللحظة فوستا تقول للملك :

ـ هل تحققت من صدق فراستي ؟

فقال الملك بلهجة تشف عن الاعجاب والدهشة :

ـ حقا ان عمله لعجيب .

وقال المفتش الاعظم :

ـ انت على حق يا سيدتي .. فهذا الرجل لا يغلب بالسلاح وانما بالطريقة التي نصحت بها .

وقال الملك :

ـ الافضل تأجيل ما انتويناه الى وقت آخر .

فقال اسبينوزا :

ـ لقد فات الوقت يا مولاي .

وانشرح صدر فوستا .. وايقنت ان باردالیان سوف يموت قريبا .

★ ★ ★

كان التوريرو في غرفته الخاصة في الساحة يستعد لمجابهة الثور

المخصص له لما علم بفشل ذي اللحية الشقراء وسقوطه ارضا ، واسراع باردالیان لانقاذه من الموت وقتل الثور .

سمع هذا الحديث من الناس الذين كانوا حوله ، خارج الخيمة وهم يهتفون ويصفقون للبطل العظيم الذي تمكن من قتل الثور الغاضب الثائر بطعنة سيف واحدة .. مما كان عجيبا لم يسمعوا بمثله قبل اليوم .

ولما اجتمعا معا بعد ذلك انشرح صدر (التوريرو) لما شاهد صديقه سالما لم يمسه جرح من الثور ، وهناه بظفره ، واقبل القزم في هذه الاثناء وقد ارتدى احسن الثياب ، وحمل سيفا معه يدور حوله فلما غادر التوريرو خيمته للمصارعة ، سأل باردالیان القزم عن سبب قدومه ، فألقى القزم نظرة حول باب الخيمة ثم همس يقول في اذن الفارس :

ـ لقد سمعت ما دار من الحديث في النفق .. وادركت اي خطر يهدد الدون سيزار ، فجئت لاكون الى جانبك وجانبه عند الحاجة ، واذا كان ضعفي وقصري لا يمكنان مثلي من القيام بعمل ما ، فان الذبابة قد تكفي احيانا لتحويل الضربة القاتلة بلدغها يد الضارب ، فلعلي اكون مثل هذه الذبابة .

فقال باردالیان :

ـ اشكرك على اخلاصك ولكن المعركة قد تكون هائلة فظيعة .

ـ اعرف ذلك يا سيدي .

ـ هل تعرف انك تعرض حياتك للموت .

ـ نعم يا سيدي .. واني لراض فخور بذلك .

ـ انت كريم شهم ايها الجميل .

فقال القزم :

ـ منذ تعرفت عليك يا سيدي ، وبعد الاجتماع تحت الارض تبدلت شخصا آخر .

« ولست هنا لمساعدة الدون سيزار فقط ، وانما لمساعدتك انت اذا كان مثلي يستطيع شيئا .. لتنسى الفكرة السيئة التي تولدت عندك عني بسبب اعمالي الاولى » .

فقال باردالیان :

ـ اني مؤمن بما تقوله .. ولكن تعال حدثني اين كنت امس .. لقد بحثنا عنك كثيرا فلم نجدك .

ـ هل انت سألت عني ؟

ـ كلا بل احدى الحسان .

ـ اتعني (حنة) ابنة صاحب النزل ؟

ـ نعم .

ـ ولكنها طردتني بالامس .

ـ ومع هذا فقد راحت تبحث عنك .

« يبدو انك لا تعرف اخلاق الحسان ، ولهذا ذهلت وعجبت » .

ـ الست تمزح يا سيدي ؟

ـ ابدا .. وسترى مصداق قولي حين تذهب لمقابلتها بعد المعركة، هذا اذا خرجنا سالمين .

ـ سوف اخرج سالما فلا عليك .

وأقبل التوريرو في هذه اللحظة يدعوهما للذهاب معه ليشاهدا مصارعته للثور .

★ ★ ★

في هذه الاثناء .. وبينما كانت فوستا في المكان الخاص بالملك الاسباني أقبل فارس وطلب مقابلتها ، فلما مثل امامها اخبرها بأنه قادم

من رومه حيث قتل كثيرا من الجياد تحته ليخبرها بموت البابا سيكست كنت .

نزل الخبر على الملك والمفتش الاعظم كوقع الصاعقة ، لوصوله الى فوستا دونهما ، والتفت الملك الى فوستا يقول :

ـ يبدو ان بوليسك السري امهر من بوليسي واسرع في نقل الاخبار .

ولم يهتم الملك الاسباني لوفاة البابا ، الذي كان خصما له ، وانما سأل الرسول عن خلفه فأجابه :

ـ يقولون ان خلفه سيكون سفوندراتو الكردينال دي كريمونا ، كما يرشحون ايضا الكردينال دي سانتي كاترو لهذا المنصب .

« اما الرأي العام فمجمع على ترشيح الكردينال دي سانت مارسيل كاشانيا ، غير ان انتخاب البابا الجديد يتوقف على ارادة ابن اخ البابا المتوفي ، وهو الكردينال موتالت ، ومما لا ريب فيه ان المجمع سيوافق حالا على ما يقوله هذا الكردينال » .

وصرفت فوستا الرسول ليرتاح من عناء الرحلة ، والتفت الملك يسألها :

ـ اليس الكردينال الذي يتوقف عليه انتخاب البابا من اصدقائك ايتها الاميرة ؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة .

ـ واظن ان المرشحين الآخرين هما ايضا من اصدقائك .

ـ اجل مولاي .

ـ وقد تبعاك الى اسبانيا على ما سمعت .

ـ نعم لقد فعلا .

فالقى الملك نظرة حادة على المفتش الاعظم ، وادركت فوستا ، ان

هناك سرا بينهما وناجت نفسها قائلة :

ــ لا بد ان اسبينوزا سيعمل للخلاص من هذين الرجلين اللذين احباني واثقلا عليّ بغرامهما .

وفكرت بأنها قد تستطيع بعد موت البابا العودة الى رومه واسترجاع املاكها ، والبحث عن ابنها من باردالیان .

وفيما هي في افكارها هذه سمعت اسبينوزا يسألها رأيها في البابا الجديد .

فقالت :

ــ لقد تبدلت كثيرا بعد خروجي من رومه ، وليس يهمني من يكون البابا الجديد ، كما لن احاول معارضته ، وسأبقى هنا ولا اتدخل في الانتخاب المقبل ، الا اذا خطر لجلالة الملك ان يطردني من بلاده .

فقال اسبينوزا بسرعة :

ــ انت كوكب يسطع علينا ، ونريدك دائما ان تبقي معنا .

وخرج اسبينوزا وادركت فوستا ما يدور في خاطره ، فهو يريد استبقاءها في اسبانيا ريثما يتم انتخاب البابا الجديد .

ولما خلا المكان للملك وفوستا ، اعرب لها الملك بدوره عن رغبته في استبقائها عنده ، حتى ولو اضطر الى ان يجعلها اسيرة في عاصمته .

وناجت فوستا نفسها وهي تقول :

ــ لا بأس ان اكون اسيرتك الآن ، ولكن حذار لنفسك ايها الملك .. فاني لا البث ان اثور عليك ، واجعلك اسيري بدورك .

وكان جمهور النظارة في هذه الاثناء ينتظرون الفصل الاخير من الصراع ، وقد انقسموا الى قسمين ، قسم جاء لحضور الحفلة للتسرية عن نفسه ، وهم القسط الاعظم ، واما القسم الثاني فهو الذي كان مطلعا على اغراض الدوق دي كاسترنا الذي اشتراهم بذهب فوستا ليدافعوا عن

التوريرو عند الحاجة ، والذي كان لا بد ان ينضم اليهم الجمهور المحب للشاب المعجب به .

ولم يكن بين النبلاء من يعرف حقيقة السر الا بعض المتصلين بالمفتش الاعظم ، اما الآخرون فجل ما كانوا يعلمونه ان الملك يريد القبض على (التوريرو) .. وقد اقلقهم هذا خوفا من حدوث ثورة شعبية .

وقد وزع اسبينوزا رجاله من النبلاء والجنود في الساحة العامة ، والطرق المجاورة ، وامرهم بالاستعداد لتنفيذ امره عندما تحين الساعة .

ولما شاهد الملك فيليب الثاني هذه الاستعدادات ، اخذ يفكر بالعاقبة ، وبالمعركة الرهيبة التي سوف تحصل بين رجاله وبين الشعب من انصار الدون سيزار ، وراح يفكر فيما اذا كان يجوز ان يضحي بكل هؤلاء الناس اشباعا لنزواته وعواطفه .

ولما اقبل عليه المفتش الاعظم بعد قليل يقول له :

ــ ان الاستعدادات قد تمت ، وان باردالیان والدون سيزار (التوريرو) سيصبحان بين ايدينا .. التفت الى اسبينوزا يسأله اذا لم يكن بالامكان تأجيل هذه العملية البوليسية الى فرصة اخرى .

ولم يكن اسبينوزا يتوقع هذا الانقلاب من الملك في هذه اللحظة . فارتجف دهشا وقال :

ــ لو لم يكن الامر يتعلق بغير هذا الشاب لكان امره هينا ، ولكنك نسيت باردالیان كما يظهر .

ولما حاول الملك الاعتراض ، مضى المفتش الاعظم يحدثه بأن بعض المتهوسين يستعدون للقيام بثورة اهلية ، لتنصيب (التوريرو) على العرش .

ولما انكر الملك هذه التهمة ولم يصدقها ، التفت المفتش الاعظم الى فوستا يسألها اذا لم تكن تعرف شيئا عن المؤامرة ، فأجابت بالايجاب .

www.liilas.com

ودهش الملك وقال :

ـ اذا كان الامر كذلك فلماذا اخفيت عنا خبر هذه المؤامرة ؟

كما اسرع المفتش يعتذر عنها ، اكتفت بالقول : انها كانت تعلم ان المفتش الاعظم عارف بالخبر ، فلا حاجة والحالة هذه لاخباره بما يعرفه.

وعندئذ اصدر الملك قراره بأن يبتـدىء (التوريرو) صراعه مع الثور ، وكان هذا بدء الزوبعة .

ـ ٢ ـ

جنون باردالیان

وقف (التوريرو) في ميدان الصراع وقد امسك بيده اليسرى قطعة من القماش الحمراء ، وفي اليمنى سيفا .

ووقف بالقرب منه القزم ومساعداه ، وهو يتحدث الى باردالیـان الذي ابدى رغبته في حضور هذه الحفلة ، وان يقف في المكان الذي يراه ملائما ليتدخل عند الحاجة .

ولما ازفت الساعة تقدم الشاب الى الساحـة ، ينتظر خروج الثور لمصارعته وقهره .

وكان جواسيس ديوان التفتيش قد انبثـوا في كل مكان ، للقبض على كل من تصدر منه بادرة اعتراض او انكار بحق الملك وحكومته .

ولما كانت حاشية الملك تعلم ان التوريرو مقضي عليه بالموت في هذه الحفلة فقد استقبلوه بالسكوت التـام بدلا من الهتـاف والتصفيـق والتشجيع .. كما هي العادة .

اما الشعب فقد استقبله استقبالا هائلا ، سر له الشاب : وادار ظهره

للنبلاء واستقبل الشعب يحييه بسيفه ، ثم استدار نحو الملك فحياه .. فرد له هذا السلام ببرودة زائدة ، لانه قدّم عامة الشعب عليه .

وسر باردالیان لحركة صديقه فصاح بصوت عال سمعه الجميع :

ــ احسنت .. يا دون سيزار .

واستبد بالملك الغضب حين سمع كلام باردالیان ، وسأل نفسه :

ــ كيف يجيز هذا الغريب لنفسه التدخل في شؤون غيره ؟

وثقل الامر على النبلاء من انصار الملك واخذوا يستعدون للمعركة المقبلة .

وكان القزم قد اثار اهتمام الناس به وهو يسير في اطراف الساحة بثيابه الجميلة ، وسيفه القصير ، فراح الحضور يمتدحونه ، ويعجبون به ، وسرّ القزم بهذا الاعجاب ، وتمنى لو كانت (حنة) قد حضرت هذه الحفلة لتشاهد اهتمام الناس به ، ولو علم ان (حنة) كانت في الحفلة ، وقد سمعت اعجاب الناس ، لكان سروره اعظم وفرحه لا يوصف .

وكانت (حنة) قد اجتمعت الى باردالیان قبل الحفلة ، فتحدث اليها مدة ساعة من الزمن خرجت بعدها دامعة العينين ، وطلبت من (بربارة) خادمتها ان ترافقها الى حفلة المصارعة بعد ان ارتدت احسن ثيابها .

ولما جلست في مقعدها ، وظهر القزم ، وسمعت امتداح النساء له ، تأثرت واهتاجت ، وصاحت :

ــ هذه اللعبة يجب ان تظل لي وحدي ، ولا يمكن ان تكون لسواي .

وما عتمت ان غادرت الحفلة قبل انتهائها ، فنجت من المعركة التي وقعت بعد ذلك .

★ ★ ★

لما خرج الثور الى الساحة ، توقف قليلا ، حتى يألف النور الذي لم يكن يعهده في غرفته المظلمة .

ولما تمالك الثور روعه ، اخذ التوريرو يهيجه ويثيره بصوته ويحسه بخرقته الحمراء التي كان يحملها في ذراعه الايسر .

وسخط الثور وانقض على الشاب .

وشمل الخوف الجميع حتى باردالیان .

فقد كان الثور يجري بسرعة البرق وقد خفض رأسه ورفع قرنيه .

وظلّ الشاب جامدا في مكانه ينتظر وصول خصمه .

ولما اقترب الثور نقل الخرقة الحمراء الى يده اليمنى ، فتبعها الثور ، ونطحها بقرنيه ، فذهبت نطحته في الهواء .

وعندئذ ألف الشاب الخرقة حول وسطه ، وانسحب بهدوء كأنما يمشي في منزله ، فعلا تصفيق الشعب لبطولته .. حتى الملك لم يتمالك نفسه من استحسان عمله .

ودارت على الاثر المعركة المرعبة بين الشاب والثور .

هذا يحاول الوصول الى جسم خصمه ، وهذا يحيد عنه بمهارة زائدة .. حتى بلغ حماس الجمهور حده الاقصى .

وبعد ان تمكن (التوريرو) من انتزاع الشرائط الحمراء عن قرني الثور ، اصبح باستطاعته الانسحاب من الساحة بعد انتصاره ، الا اذا كان يريد قتل الثور ، او اجباره على الانسحاب من الساحة الى الغرفة الخاصة به .

وكانت هذه اللحظة اشد اللحظات هولا على التوريرو ، لانه كان عليه ان يقوم بالكثير من الحركات المختلفة في المهارة والسرعة حتى يتمكن من انهاك الثور واخضاعه ورده عنه .

واحتبست انفاس الجمهور ...

وكانوا ينتظرون بعد نجاح التوريرو ان يتقدم الى الفتاة التي يحبها، فيضع الشرائع تحت قدميها .

ولكن اسبينوزا كان قد قرر ان تكون هذه اللحظة هي التي يصار فيها الى القبض على الشاب .

وكان الرواق المستدير غاصا بالجنود المسلحين المستعدين لوقف افراد الشعب عند حدهم اذا ما حاولوا التدخل فيما لا يعنيهم .

وهذا عدا الجنود الذين كانوا يملأون الشوارع المجاورة .

ولهذا لم يكن امام المكلفين بالقبض على التوريرو ، الا ان يقودوه نحو رجال المفتش الاعظم وانصاره ، حيث يصار الى القبض عليه ، بينما يقوم الجنود بمواجهة الشعب اذا ما حاول ثورة او حربا .

★ ★ ★

والواقع ان حركات التوريرو وجرأته وبراعته في مصارعة الثور ، جعلت اهتمام الجميع ينصب عليه ، لا يفارقونه بأبصارهم غافلين عن حركات خصومه ضده .

ولحظ باردالیان حركات الجنود واستعدادهم ، وكان يقف في الجهة المعارضة لهم .. فلم يتحرك من مكانه وعلت على وجهه ابتسامة السخرية والهزء .

ولحظ باراليان ايضا تبدلا في وجوه العمال الذين كانوا يحملون آلاتهم في ايديهم لاستعمالها عندما تدعو الحاجة الى ذلك ، من مقتل الثور ، او اصابة المصارع ، وبدا له انهم اخذوا يستعدون ويتأهبون .. ولم يكن هناك في الساحة ما يدعو الى ذلك .

وتقدم في هذه اللحظة بعض النبلاء واختلطوا بالعمال ، فأدرك انهم على تفاهم ، كما شاهدوا بعض اولئك العمال يقطعون جسور الحاجز ، فأدرك لاول وهلة انهم لما شاهدوا باب المخرج ضيقا ، اخذوا يفتحون ابوابا اخرى للسرور عند الحاجة .. فيما راح الباقون يحاولون ستر هذه العملية ، ولما حدق النظر في وجوه بعضهم عرف فيهم بعض المتآمرين من انصار فوستا .

ناجى نفسه قائلا :

ـ هذا هو الحرس الذي اقامته فوستا للدفاع عن ملك اسبانيا العتيد .. وانا واثق ان صديقي المحبوب سيخرج سالما من هذه المعركة، لان هؤلاء الرجال الاشداء سيموتون في سبيله .

ولم يخطر ببال باردالیان انه معرض للخطر بدوره .

فقد قضى يراقب حركات صديقه البارعة ، وشاهده يجر الثور اخيرا حتى الباب ، حيث سيهاجمه هناك للمرة الاخيرة ، فاما ان يسعده الحظ بقتله ، او يتمكن منه الثور فيقضي عليه .

وشعر في هذه اللحظة بدافع سري يدفعه للنظر خلفه .

فلما شاهد بيسي لكلرك على مقربة منه ، ينظر اليه نظرة غريبة .

سأل نفسه :

ـ لماذا غادر (بيسي) مكانه الذي كان يشاهد فيه كل ما يجري في ميدان الصراع ليأتي ويقف في هذا المكان ؟ ان له غاية حتما .

« اتراه يريد ان يثأر لنفسه مني ؟ »

« انه ان فعل فسأجعله يفشل فشلا ذريعا » .

وقال لنفسه بعد ان تأمل (بيسي) :

ـ لا بد انه قد اصطحب معه جماعة من الجند لمساعدته .

ولما جالت هذه الفكرة في خاطره شهر سيفه ، واستعد وحذر .

وسمع صياح الشعب في هذه اللحظة وهتافه .

فأدرك ان الدوق سيزار قد انتصر على الثور .

وتقدم الشاب الى المكان الذي كان يقف فيه باردالیان ، وبعد ان حيّا الشعب بسيفه .

وفي الحال احاط به العمال المزيفون انصار فوستا .. وانصاره .. ليجعلوا من صدورهم درعا له .

وعندئذ تحرك الجند الذين كانوا في الرواق وتقدموا نحو الميدان.. وقد استعدوا لمواجهة الشعب بالنار ، فيما اذا قاوم او ثار .

ودهش الشعب لهذه الحركة التي لم يكن ينتظرها .

وفي هذه اللحظة نفسها تقدم ضابط وعشرون جنديا الى التوريرو .

وكان الضابط يعتقد انه سيلقي امامه رجلا واحدا ، فعجب لما شاهد حول التوريرو جمعا يفوق ما عنده من الجنود .

واصفر وجهه من الغيظ وصرخ بصوت عال :

ــ قفوا في اماكنكم .. بأمر الملك ادعوكم الى الوقوف .

ولكن احدا لم يتوقف .

وصرخوا جميعا :

ــ يحيا الدوق كارلوس .

واخذ الضابط ينتف شعر شاربه من قرط حنقه .

واحسّ الملك برعشة لما سمع هذا الهتاف .

وكأنما كان هذا النداء اشارة لجماهير الشعب فأخذت تصيح :

ــ يحيا الملك كارلوس .

« يحيا ملكنا » .

ودهش الكثيرون حين عرفوا ان الدون كارلوس حفيد الملك فيليب هو التوريرو نفسه ، الذي كان يريد جده قتله .

واستبد الغضب بعامة الشعب لما عرفوا الحقيقة ، لقد احبوا التوريرو قبل ان يعرفوا انه ابن ملك .. وهالهم ان يحاول ملكهم الظالم القبض على هذا الشاب المحبوب منهم .. فانقلبوا الى محاربين مستعدين لسفك دمائهم دفاعا عن بطلهم اللطيف المحبوب .

وكانت الاسلحة قد اخذت توزع على الجميع .

والذين لم يكونوا يعلمون شيئا عن السر الخفي ، لم يشعروا الا وقد اصبح في يد كل منهم سيف او خنجر او مدية بطريقة عجيبة غريبة .

صاح احد الضباط الكبار موجها كلامه الى افراد الشعب :

ــ لا يتحركن احد من مكانه لئلا آمر باطلاق النار .

وصاح على الاثر صوت من افراد الشعب يقول له :

ــ اذا فعلت لن يكون عندكم الوقت الكافي لحشو بنادقكم مرة ثانية .

وصاح رجل آخر في حماس :

ــ الى الامام ايها الرفاق .

تقدم الشعب ، ونفذ الضابط وعيده، فأصيب من كانوا في الصفوف الاول برصاص الجند ، وحصل عندئذ ما تكهن به الرجل المجهول ، فقد اضطر الجنود بعد الطلقة الاولى الى حشو بنادقهم ، ولكن الشعب لم يمهلهم ، فهجم عليهم بسلاحه الابيض .

وفي هذه الاثناء حمل انصار التوريرو محبوبهم رغما عنه ، الى مجرى الميدان حيث لم يكن اسبينوزا يتوقع خروج احد منه ، لان كل الشوارع كانت محروسة بالجند ، الا هذا الطريق الذي ملأته فوستا برجالها وانصارها وانصار الشاب على الاصح ، فأخذ هؤلاء ينقلون التوريرو من يد الى اخرى حتى وصلوا به الى بيت احد المتآمرين ، ومنه

www.mlazna.com
MRAYAHEENA

نقلوه الى خارج المدينة ، حيث وضعوه في غرفة منفردة تشبه السجن زيادة في الحذر والحيطة .

ولقد حاول التوريرو مقاومة من حاولوا انقاذه ، ولكن هؤلاء لم يبالوا به ، فنقلوه رغما عنه ، وكان سبب مقاومته انه اراد انقاذ حبيبته جيرالدا التي كانت تحضر المصارعة ، فلم يوفق .

واما (جيرالدا) فانها لما سمعت من افراد الشعب ان الجنود يريدون القبض على حبيبها ذهلت ودهشت ، واسرعت تريد انقاذه .

ولكن كريستوبال كان قد وزع بعض رجاله حولها ، فلما حاولت الحركة ، عرض عليها احد الجنود مساعدته فقبلت ، ومضى بها في طريق كان كريستوبال ينتظره فيها فحملها على ظهر جواده ، وهرب بها .

★ ★ ★

لقد وصفنا في فصول سابقة ، وكتب سبقت ما حاوله بيسي لكلرك حاكم الباستيل السابق من الفوز على بارداليان فلم يوفق ، وكيف طاش رأسه ، وذهب عقله لفشله ، وهو الرجل الذي كانوا يسمونه في باريس بالرجل الذي لا يغلب ، حتى اضطر الى محاولة قتل خصمه غدرا وغيلة ، فلم يوفق ايضا ، فضاق صدره ، ولم تعد تسعه الدنيا ، وانهارت اعصابه لان بارداليان رفض قتله او مبارزته مرة اخرى ، بعد ان تدنى وسلك طريقة اللصوص لا الاشراف والنبلاء في مقاتلة خصومه .

وهكذا عاد الى منزله ذليلا باكيا واقفل بابه عليه ، وقضى ليله لا يدري ما يفعل .

فلما اصبح اليوم التالي ، قرر الانتحار تخلصا من العار الذي لحقه،

ولما استقر رأيه على ذلك ، كتب وصيته ، واهبا فيها ما يملكه الى بعض اصدقائه .

واقبلت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر وهو لا يزال على حاله هذا ، فاختار سيفا قرر الانتحار به، وفي هذه اللحظة سمع قرعا على الباب، فقال في صوت عال دون ان يدري :

ـ من الذي يريد زيارتي في مثل هذا الوقت ؟

وسمع الطارق صوته ، فقال له :

ـ افتح يا بيسي فانا رسول فوستا .

وفتح (بيسي) الباب بعد تردد ، فوجد امامه كريستوبال .

ودار حديث طويل بين الرجلين ، رفض في اوله (بيسي) الموافقة على مقترحات الزائر ، ولكن هذا ما لبث ان اقنعه بقبول خطته بعد ان ثار حقده على خصمه الذي اهانه وحقّره واطار له سيفه اكثر من مرة .

وكان من نتائج هذا الحديث وجود (بيسي) في الرواق غير بعيد عن بارداليان بعد ان كلفوه برئاسة عدد من الجنود الاسبان لمواجهة الفارس الباسل .

ولما حاول بارداليان التقدم نحو الساحة ناداه « بيسي » يطلب منه التوقف ليقول له كلمة قصيرة .

ولكن الفارس الباسل لحظ في اللحظة نفسها ان (بيسي) لم يكن وحده وانما كان خلفه ما لا يقل عن مائة من الجنود .

ولحظ في الوقت نفسه ان فرقة ثانية من الجنود ظهرت فجأة في الرواق ، فأدرك انه وقع في كمين لا يمكن له النجاة منه الا بمعجزة ، فقرر مجابهة الموت وتحول الى (بيسي) يذكره بفشله المتكرر وهو انه الذي تردّى فيه مؤخرا حين حاول قتل خصمه غيلة وغدرا .. وبيسي

يتقطع قلبه حقدا وغضبا عند سماع هذا الكلام ، ولا يستطيع ان يقول شيئا بعد ان نصحوه بضبط اعصابه والتظاهر بالسكينة .

ولكن صبره ما لبث ان انفجر ، فامتشق سيفه ، وجحظت عيناه وصاح يقول :

ـ الويل لك ايها الشقي .

واجابه بارداليان باحتقار لا مزيد عليه ، ومضى يرسل له الاهانة بعد الاهانة وهو يراقب حركات الجنود الذين اخذوا يتألبون حوله من كل مكان .. مما جعل من المستحيل عليه اختراق صفوفهم وهو الرجل الفرد .

وبدأت الزوبعة في هذه الاثناء واخذ افراد الشعب يهاجمون الجنود الذين اطلقوا عليهم النار كما قدمنا .

هاجموهم قبل ان يتمكنوا من حشو بنادقهم بالرصاص للمرة الثانية .

ولم يبال الجنود الذين احاطوا ببارداليان بالثورة القائمة غير بعيد عنهم .. ولا بالمعركة التي كانت تدور بين الشعب والجنود الآخرين .

كان همهم بارداليان .. وكان الامر قد صدر اليهم بأسر بارداليان وحده .

وشهر (بيسي) سيفه يريد مبارزة باردالیان للمرة السادسة او السابعة .

وظهرت فوستا في هذه اللحظة ، ووضعت يدها على كتف (بيسي) وقالت :

ـ انظر يا بارداليان الى ما حولك ؟

« هل تعتقد انك تستطيع النجاة ؟

« انظر الى هذه المئات من الجنود التي تطوقك .. واعلم بأن هذه المكيدة الجديدة هي من صنعي وتدبيري .

« وقد قبضت عليك هذه المرة وهيهات ان تنجو مني .. فاستعد لوداع هذه الحياة » .

« فأشار باردالیان لها بيده محتقرا وقال وهو يشير الى (بيسي) :

ـ لقد عرفت هذا الرجل في الماضي وكان سجانا ، واما اليوم فقد اصبح من القتلة الجبناء .. وجلب معه مئات الجنود للوقوف في وجه رجل واحد .. فهل بعد هذا الجبن جبن ؟

« واما انت فانك لا تثيري دهشتي ، وظهورك الآن يدل على ان فعلة دنيئة كهذه لا يمكن ان تتم ابدا بدونك » .

فقالت فوستا :

ـ هو ما تقول ... فأنا الذي أعددت هذه المكيدة وبيسي قد جاء الى هنا بأمري .

والتفتت الى احد الضباط وقالت له :

ـ اقبض على هذا الرجل .

وقبل ان يتحرك الضابط من مكانه صاح (بيسي) :

ـ صبرا قليلا ، واسمحوا لي بمبارزته اولا .

صاحت به فوستا :

ـ هل فقدت صوابك ؟

ـ كلا ... ولكن هذا الرجل كان دائما يفاخر بأنه غلبني ... ونزع سيفي من يدي وانا اريد ان اكذّب اقواله .

قالت له :

ـ اتريد ان تعرض نفسك للقتل فان باردالیان لن يتركك حيا هذه المرة .

فقال (بيسي) ببرود وتصميم :

ـ اطمئني يا سيدتي ، فان باردااليان لن يتمكن من قتلي .. كما اني لا اريد قتله ، وسأسعى فقط لانتزاع سيفه من يده .. وارجو يا سيدتي ان لا تحاولي الاعتراض على عملي هذا ، وان تتركيني وشأني .. فقد خدمتك باخلاص ، واذا لم تفعلي فلن اكون مسئولا عما سوف يحدث .

كان في كلماته من الوعيد ما لم يخف على احد ، فقررت فوستا الموافقة وقالت له :

ـ حسنا فافعل ما تريد .

★ ★ ★

اثار موقف (بيسي) ظنون باردااليان وشكوكه .

وادرك ان في الامر سرا .

ولكنه تراجع الى الوراء واشهر سيفه .

وفي هذه اللحظة وقع نظره على سيفه .. فأدرك انه ليس سيفه .. وانه السيف الذي التقطه من الارض اثناء عراكه مع كريستوبال واعوانه .

ولحظ ان (بيسي) حين تحقق له ان خصمه سوف يقاتله ويبارزه تنهد مرتاحا ، وبدا السرور على وجهه .

لم يبق هناك شك في ان في الامر سرا .

وقرر الحذر في هذه المبارزة وبدلا من مهاجمة خصمه بشدته المعتادة وقوته الضاربة ، اخذ يجس سلاحه بمهارة لا مزيد عليها ، حتى تأكد انه ليس من الصلابة بالقدر المفروض في سلاحه .

واخذ بيسي يوجه ضرباته الى سيف خصمه بقوة لا تتفق مع اصول المبارزة ، وبعد قليل طار نصف سيف باردااليان في الهواء فزمجر بيسي وصاح مفتخرا :

ـ لقد نزعت سلاحك .

كان السيف مبرودا فلم تكد المبارزة تبدأ حتى انكسر وطار من يد باردااليان ، وكان (بيسي) يعرف ذلك من كريستوبال فاغتنم هذه الفرصة لمبارزة خصمه .. ليبدو امام الناس منتصرا عليه .

وكان الذين على مقربة من باردااليان قد ابصروا ان نصل السيف لا يزال بيده فتأكدوا عندئذ ان السيف لم ينزع من يد صاحبه ، وان ما حدث يدعو للشبهة والشك .

ولما سمع باردااليان (بيسي) ينادي بانتصاره اغرب ضاحكا من فرط غضبه وحنقه .

ووجم الحضور لسماعهم هذا الضحك الغريب ، الذي لم يكن يشبه ضحك البشر ، حتى ان (بيسي) نفسه ارتجف وتخاذل ، وعاد يقف بين الجنود ليظل بعيدا عن خصمه .

وكان باردااليان في الواقع قد استبد به الغضب لهذه الطريقة القذرة التي توسل بها (بيسي) النبيل السابق ليوهم الناس انه تغلب عليه ، فانقلبت ملامحه واخذ يضطرب غاضبا حتى ذعرت فوستا نفسها وقالت :

ـ عجبا هل جنّ يا ترى ؟

وقال صوت آخر :

ـ هل انتهت مهمتنا ؟

www.mlazna.com
MLAZNA HELWA

- ٣ -

باردالیان في السجن

كان هذا الحديث يدور بين فوستا واسبينوزا ، وكانت فوستا تقول :

ـ ما كنت اظن ان رجلا مثل باردالیان يجن بمثل هذه السهولة .

فقال اسبينوزا :

ـ انه كثير الكبرياء عظيم الانفة فلما تأكد من هلاكه يئس من نفسه وجنّ جنونه .

انظري اليه ايتها الاميرة .. انه عاجز عن سماع ما نقوله ، وقد قضي عليه الى الابد .

والواقع ان النوبة العصبية التي اصابت باردالیان منعته عن رؤيتهما لبعدهما عنه ، ولكنه أدرك بذكائه ما كانت تقوله فوستا ، ويتحدث به المفتش الاعظم .

فأخذ يستجمع قواه ليتغلب على نفسه ويستعيد انطلاقة ذهنه ، بعد ان ركبه من الهول ما لم يكن يتوقعه في حياته .

وكانت قوة ارادته من القوة بحيث اعادته الى توازنه فأخذ يتقدم نحو (بيسي) ومرّ امام فوستا واسبينوزا دون ان يراهما ، وهمس المفتش يقول لفوستا :

ـ يبدو انه لم يسمع حديثنا ، ولا فطن لوجودنا .

ـ هذا ما اعتقده ايضا ، ولو انه سمع حديثنا لقضي علىمشروعنا.

كان باردالیان لا يزال يتقدم نحو بيسي لكلرك .. وقد اتقدت عيناه باشعة الغضب ، بحيث ادرك الجميع غرضه وانه سوف يقضي على خصمه بيديه ، اذا كان لا يملك سلاحا .

واكد المفتش الاعظم هذا الرأي ، وصادقت عليه فوستا .

وكان (بيسي) وهو يتراجع من امام خصمه ينظر الى فوستا لعلها تأمر الجنود بالقبض عليه فتظاهرت هذه بأنها لم تفطن لغرضه ، وقال اسبينوز :

ـ اذا اردت يا سيدتي أمرت بالقبض على باردالیان قبل ان يفعل شيئا .

فقالت :

ـ وما الذي يدعونا الى ذلك فقد فعل (بيسي) ما فعله لمصلحته الشخصية ، وهو من زمن طويل يحاول الفتك بخصمه غيلة فليتدبر امره بعد الآن .

ـ ولكن نحن ...

فقاطعته فوستا قائلة :

ـ لقد حاولنا قتل باردالیان بمختلف الوسائل والاسباب فلم ننجح حتى اضطررنا الى استعمال ما هو خارق للعادة ، نعم نحن نريد موته .. ولكننا نحترم شجاعته وبسالته ، وهو جدير باحترامنا ، لا نريد اهانته واحتقاره ، فهذه الوسائل خليقة برجل مثل (بيسي لكلرك) الذي جرّ

عليه غضب باردالیان ، فليتخلص من هذا المأزق اذا استطاع الى هذا سبيلا ، واما انا فلن احرك يدا لنجاته .

فأبدى المفتش الاعظم اشارة دلت على عدم اهتمامه بمصير (بيسي)، واخذ يراقب حاكم الباستيل الذي كان يتراجع كلما تقدم باردالیان نحوه .. حتى لم يعد امامه مكان يتراجع منه .

كان باردالیان يتقدم نحوه وهو اعزل من السلاح كما قدمنا .. وليس باستطاعة (بيسي) ان يشهر سيفه في وجه رجل اعزل من السلاح.

واذا فقد كان عليه ان يتحمل ضربات رجل اعزل ، او يشهر سلاحه في وجه رجل اعزل ، وسيكون في الحالتين مذموما من الحاضرين .

ولما ادرك باردالیان ان خصمه لم يعد يستطيع التراجع امامه ، صاح بصوت عال ارتجف لها بيسي :

ـ لن ادنس يدي بوجه رجل لئيم سافل ..

واخذ يقازيه وليسهما بهدوء .

فأدرك (بيسي) انه يريد صفعه ، زيادة في تحقيره واهانته ، فلم يستطع على هذا صبرا ، وشهر سيفه في وجهه ، وصاح :

ـ ألا مت ككلب اذا كنت تريد ذلك .. ورفع يده يريد ضرب باردالیان بحسامه ، ولكن هذا قبض على سيفه بيد واجبره بالاخرى على تركه ، فأخذه منه ، واصبح باردالیان يحمل سيفا ، وبيسي اعزل من السلاح .

لقد كان باستطاعة باردالیان الافادة من هذا السيف الجديد للدفاع عن نفسه .

ولكنه كان رجلا غريب الاطوار كما قدمنا .. وقد عزم على تأديب بيسي فهو يسفي في خطته ، ولو كان في هذا هلاكه .

★ ★ ★

صاح (بيسي) عندئذ :

ـ اقتلني .. اقتلني ..

فقال له باردالیان :

ـ لقد جردت سيفك على رجل اعزل من السلاح ، وهذا عمل يخالف قوانين الشرف والشهامة ، ولهذا فأنت لا تستحق حمل هذا السيف الذي كنت تهددني به .

وكسر السيف على ركبته ورمى بقطعه الى الارض .

ودهش المفتش الاعظم لهذه الجرأة الغريبة وقال :

ـ لم اشاهد في حياتي رجلا متكبرا الى هذا الحد .

فأجابته فوستا :

ـ انه مجنون لا يقدر العواقب .

وأخطأ كلاهما في الحكم عليه .

وقال باردالیان يخاطب (بيسي) :

ـ لقد كان باستطاعتي خنقك ، ولكني اعفو عن حياتك احتقارا لك ، وحتى لا يقول احد بأني لم اقابل الضربة بمثلها فسوف اصفعك صفعة فقط .

وامسك الفارس البطل بيسي من وسطه وجذبه اليه رغما عن مقاومته ، ورفع يده التي كان فيها القفاز وصفع فيها عدوه الخائن صفعة شديدة القته ارضا .

وبعد ان اهان باردالیان عدوه هذه الاهانة التي لا يستطيع رجل نسيانها ، نزع قفازيه بأطراف اصابعه ، والقاهما بعيدا عنه .

ثم تقدم نحو فوستا واسبينوزا والابتسامة لا تفارق شفتيه ، فخشي المفتش الاعظم العاقبة ، فأعطى الاشارة للجنود للقبض عليه ، فأخذوا يتقدمون نحوه .

واحس الفارس بالخطر ، فشتم نفسه لانه كسر سيف (بيسي) .. ولو ظل في يده لأدّب هؤلاء الجنود ولأذاقهم الويل ..

اخذ يستعمل يديه وقبضته ، فكان الرجل والرجلان يسقطان معا تحت ضرباته ، بينما كان صوت المعركة الاخرى بين انصار الدوق كارلوس وجنود الملك يسمع من بعيد ، وصوت هتاف الشعب يعلو كل صوت وهم ينادون بحياة الملك كارلوس .

ولقد ادرك باردااليان ان الجنود لا يستعملون سلاحهم ضده ، فظن انهم يريدون ان يقبضوا عليه حيا لتعذيبه كما قدمنا وانهم يريدون انهاك قواه ، حتى يتمكنوا من القبض عليه اخيرا .

ولما ضاق صدر الجنود بضرباته هجموا عليه دفعة واحدة ، فأمسك بعضهم بيديه وآخرون بقدميه ، حتى تمكنوا اخيرا ، وبعد صراع مرير من تقييده وتكبيله ، بعد ان اصيب باكثر من جرح في جسمه .

ورفع باردااليان رأسه لما اصبح عاجزا عن المقاومة ونظر الى فوستا ، التي كانت تشاهد معركة غريبة بين رجل واحد ومائة جندي .

وعندئذ اقتربت منه فوستا ، بعد ان اصبح مقيدا مغلولا ، فدفع الجنود الذين حوله ليقول لها ما يعتقده فيها .

وكان الجنود في الواقع قد ابتعدوا عنه لما اقتربت منه .

ولكن باردااليان حين نظر الى عينيها ، لم يجد فيهما شرر الفوز وامارات السرور ، بل وجد على العكس من ذلك دلائل التأثر والحزن .

سأل نفسه ، ما الذي يدعوها لملاحقته ومطاردته بمثل هذه الشدة اذا كانت في ساعة الفوز تبدو حزينة يائسة .

والحقيقة ان فوستا كانت لا تزال تحب باردااليان .

ولما تمكنت منه في هذه اللحظة ادركت ان العاطفة التي تشع في قلبها والتي كانت تحسبها بغضا ، لم تكن غير حب وعاطفة فوارة .

لقد راحت تقول لنفسها في هذه اللحظة :

ـ ويلاه اني لا ازال احبه .. ولم يكن ما احسبه كرها ، الا انتقاما لفشلي معه ، ولرفضه ان يبادلني حبا بحب ، اما الآن وبعد ان قبضت عليه وسلسته الى اعدائه الذين سيعذبونه عذابا مريعا ، فاني مستعدة مقابل نظرة منه ، او ابتسامة لان اطعن المفتش الاعظم الذي يراقبني ، او ان اموت معه اذا لم اوفق الى انقاذه .

ولكن لم تظهر منه اشارة من هذا النوع .. تراجعت الى الوراء ، وتركته لمصيره بعد ان قالت له :

ـ الوداع يا باردااليان .

فاجابها بسخرية :

ـ لا تقولي الوداع .. بل الى الملتقى .

فعادت فوستا تقول :

ـ بل الوداع .. الوداع ..

فقال باردااليان :

ـ لست من الرجال الذين يقتلون بمثل هذه السهولة .. ولقد حاولت قتلي مرارا فلم توفقي .

أجابته :

ـ الوداع يا باردااليان ، فأنت لن تراني بعد اليوم .

وظن باردااليان انها عنت بكلمتها هذه انهم سوف يعمونه ، ولكنها ما لبثت ان قالت :

ـ واذا رأيتني فسوف لا تعرفني .

وساورته الشكوك لهذا الكلام الغامض ، ولكنه تجلد وقال هازئا :

ـ اذا رأيتك ولم اعرفك فهذا دليل على انك اصبحت كباقي النساء

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ذات قلب وعواطف رقيقة .

وقال اسبينوزا في هذه اللحظة :

ـ خذوا الاسير الى دير سان بابلو .

وصاح بارداليان :

ـ الى الملتقى ايتها الاميرة .

★ ★ ★

كان دير (سان بابلو) يقـوم على مقربة من ساحـة فرنسيسكو وتطل نوافذه عليها .

ولما كانت الثورة لا تزال قائمـة بين جنـود الملك وانصار الدون كارلوس في الساحة، فقد اصدر المفتش الاعظم امره الى الضابط المسؤول بأن يذهب ببارداليان في الشوارع الضيقة ، حتى لا يعرفه احد من افراد الشعب ويحاولون انقاذه .

وكذلك اضطر بارداليان الى السير على قدميه ساعتين ، حتى وصل الى الدير الذي يبعد دقائق عن الساحة .

وكان جنود الملك قد تمكنوا من عامـة الشعب الذي وقف امامهم بعد ان انسحب رجال فوستا ، وتركـوه وشأنه ، ولو انهم بقـوا معه ، لتبدل الموقف بالتأكيد .

ولكن فوستا غيّرت خطتها في اللحظة الاخيرة ، وقررت الاكتفـاء باختطاف الدون كارلوس وانقاذه ، وانسحاب رجالها من المعركة لانها لم تكن واثقـة من ان الدون كارلوس سيؤيدها في خططها ويقبل بزواجه بها ، واذا لم تحصل على هذا الزواج والعرش الاسباني فما الذي تفيده

من موت الملك فيليب وقيام غيره مكانه على العرش .

ولهذا امرت رجالها بالانسحاب من وسط المعركة ، لتؤكد للدون كارلوس او (التوريرو) قوتها ، وانها تستطيع اجلاسه على العرش اذا أرادت .. وقبل بشروطها .

ولما وصل بارداليان الى الدير شاهد القزم امامه ، فقدّر ان قصر قامته مكنه من الوصول اليه .. والانسلال من بين الجنود فلم يره احد، وادرك في الوقت نفسه ان القزم انما جاء قاصدا هذا المكان لاجله .

ولما نظر الى وجهه شاهد امارات الاخلاص في عينيه وحبه الصادق له .. فقرر ان لا يكلمه وان يتجاهله حتى لا يشك الجنود بأمره .

ولكن بارداليان لم يستطع الا ان يسأل القزم بعينيه عن صديقـه الدون سيزار ، وفطن القزم لغرضه ، فأجابه باشارة اكدّت لبارداليان ان صديقه قد نجا من اعدائه .

ولما وصلوا الى باب الدير الكبير وهو من الحديد المصفح ، توقف حرس بارداليان حتى يفتحوا اقفاله الغليظة التي حملها لهم القزم بصعوبة، وقد انتهز القزم هذه الفرصة ليشير الى باردالـيـان مؤكدا له انه سوف يزوره كل يوم .

كما افهمه بأنه مستعد ليكون رسولـه مع الخـارج ، فابتسم له شاكرا .

ولما تحرك بارداليان ليدخل الى الدير اشار له القزم ان لا ييأس ، فقد استطيع انقاذك رغما عن ضعفي .

ولما اقفل الباب الضخم خلف بارداليان ، وقف القزم حائرا حزينـا لابتعاده عن صديقه ، وعاد ادراجه الى المدينة التي غابت عنها الشمس ، فلم يفطن الى شوارعها المقفرة ، ومخازنها المغلقة ، لاستغراقه في افكاره،

ولانه كان بين وقت وآخر يخرج ورقة من صدره ، وبعد ان يتأملها مليا يعيدها الى مكانها .

★ ★ ★

لم تكن هذه الورقة التي اهتمّ لها القزم الا الامر الموقع على بياض بامضاء الملك ، والذي اعطاه ذو اللحية الشقراء الى كريستوبال فباعه هذا الى فوستا ، واضاعته هذه في القبو فعثر عليه بارداليان ، فلم يستطع قراءته بسبب الظلام ، ولما اخذ يزحف على البلاط لمراقبة القزم وهو في مكانه تحت الارض .. اضاع هذه الورقة فعثر عليها القزم .. وادرك اهميتها فخبأها في صدره .. لعله يفيد منها في المستقبل .

ولكنه بالتأكيد لم يكن يدرك خطورة هذه الورقة لانه لم يكن يجيد القراءة وتمنى في هذه الساعة لو كانت له معارف حنة وذكائها ، اذا لأدرك اهمية هذه الورقة وكيف يستطيع الافادة منها على الوجه الاكمل .. ولهذا عزم على الالتجاء اليها ليأخذ رأيها فيها .

ولما وصل الى النزل وجده خاليا من الناس ، فلم يعجب لهذا الامر بعد الحوادث الدامية التي وقعت في المدينة .

وكانت حنة جالسة في غرفتها لم تخلع ملابسها الثمينة التي كانت ترتديها في حفلة المصارعة ، وكانت بالتأكيد تتوقع زيارة القزم ، فلما شاهدته تظاهرت بالغضب وصاحت في وجهه :

ـ كيف تجسر على المجيء الى هنا بعد ان طردتك ؟

ولأول مرة في حياته لم يبال بهذه الاهانة وأجابها بهدوء .

ـ جئت أحدثك بأمر خطير .

وعجبت لما سمعته منه .

ولاحظت الدم على ثيابه فأجفلت وسألته :

ـ أراك ملطخا بالدماء فهل تقاتلت مع احد ؟

ـ الم تسمعي بالثورة التي وقعت في المدينة ؟

ـ لا .. ولكني سمعت من الزبائن القلائل الذين قصدونا بأن القتلى والجرحى يعدون بالمئات .. هل انت جريح ؟

ـ كلا .. ولكني اصبت ببعض الخدوش التي لا اهمية لها ، غير ان الدم الذي ترينه على ثيابي ليس دمي ، وانما دم المساكين الذين قتلوا امامي .

ـ الذنب ذنبك لتدخلك فيما لا يعنيك .

ـ لقد تدخلت مكرها .

ـ لقد كنت انا في الحفلة ايضا ، ولكني غادرتها قبل حدوث شيء .

فاصفر وجه القزم حين سمع انها حضرت الحفلة ، واخفت (حنة) عنه في الوقت نفسه اهتمامها وسرورها بنجاحه ، واعجاب الحضور به .

ومضى القزم يقول :

ـ والواقع انك لم تعرفي حقيقة ما جرى ، فقد كانوا يريدون قتل (التوريرو) ولاجله جرت هذه المعركة التي قام بها الشعب ليدافع عنه ضد جنود الملك .. وقد سمعتهم يقولون ان الدون سيزار هو حفيد الملك فيليب الثاني ، والشعب يريد تنصيبه مكان جده .

وصاحت (جوانا) او حنة :

ـ الدون سيزار ابن ملك .. طالما فكرت بأنه من سلالة نبيلة ...

لا بد ان الملك كان يجهل هذا ولو عرفه لما امر جنوده بمهاجمة التوريرو .

ـ بل انه كان يعرف هذا السر ولهذا كان يريد قتله .

— يا الهي ان ما اسمعه فظيع جدا ، اذ كيف يقدم اب او جد على قتل حفيده ؟

فقال القزم ببرود :

— هذا ما يسمونه اسرار المملكة .. فلا تعجبي يا سيدتي .. وعلى كل حال فهم لم يتمكنوا من الدون سيزار ، ولكنهم تمكنوا من الفارس بارداليان .

وبدا الحزن على وجهها فسألها :

— ألا تزالين تحبينه ؟

فقالت بدهشة :

— طبعا احبه ، ولكن ليس كما تظن .. احبه لشهامته ومروءته ولاخلاصه وشجاعته ، احبه كأخ اكبر فلا تنسى هذا ايها القزم .

وفرح القزم فرحا شديدا لهذا التصريح الذي لم يكن يتوقعه ، وقال لها :

— اذا كنت تحبين الفارس بارداليان كأخ اكبر .. فلا بد انك تريدين مساعدته لانقاذه من الخطر ؟

فقالت :

ولما سألته لماذا قبضوا عليه وكيف جرى ذلك ، مضى يقص عليها تفاصيل المعركة التي وقعت بين رجل واحد ومئات الجنود ، وكيف قتل الكثيرين وهو اعزل من السلاح حتى تمكنوا منه وربطوا يديه ورجليه لخوفهم منه .

واخذ القزم الجميل كما كانوا يسمونه في بلده يتدفق في حديثه كالبحر الزاخر ، ويقص عليها كيف اخذوا بارداليان الى دير سان بابلو ، وكيف انه يحبه اصدق حب ، ويعتبره سيده وولي نعمته ، وانه مستعد لسفك دمه في سبيله .

وعجبت (حنة) لفصاحته وبلاغته ، وذهلت لهذا الانقلاب الذي طرأ عليه ، فقد كانت تعتبره حتى هذه الساعة لعبة بين يديها ، وكانت تعلم انه يحبها حبا عظيما ، ولكنها لم تسمع منه وحتى هذه الساعة كلمة تدل على حبه هذا ، الا هذه الاشارات والحركات التي كانت تصدر منه حين يكون قريبا منها .

وقد كانت صادقة حين قالت للقزم انها تحب بارداليان كأخ ، وانها مستعدة لمساعدته والتضحية في سبيله ، ومن الغريب ان هذا الفارس البطل الذي تألبت عليه كل قوى الدولة حتى تمكنت منه لم يجد من يهتم بأمره الا هذين الشخصين الضعيفين اللذين كانا لا يعدان شيئا مذكورا اذا قيسوا الى اعدائه العديدين الخطرين .

واما القزم فقد شغلته قصة باردالیان وبطولته عن اي شيء آخر ، فلم تثره محاولات (حنة) لاغرائه وجعله يقترب منها ويجلس تحت قدميها الصغيرتين كما كان من عادته ان يفعل ، كما ازدادت سعادته لما سمع اعتراف حنة بحبها لباردالیان كأخ اكبر ، وكان يظنها تحبه كشاب جميل وتريد ان يبادلها حبا بحب ، وعاطفة بعاطفة .

ولكي يؤكد القزم حبه لها ، واخلاصه اخذ يحدثها عن باردالیان الذي اعلنت تعلقها به كأخ واستعدادها لانقاذه ، وهو ما ضايق (حنة) آخر الامر لانها كانت تريده ان يتحدث عنها ، ولو قليلا .

ولو ان القزم تجاسر وتحدث اليها عن حبه ، لبادلته عاطفة بعاطفة ، ولكنه لم يفعل ، او لم يتجاسر ان يفعل ، فحسبت تردده اهانة لها .. وقررت آخر الامر ان تجري معه حول الحديث الذي يلذه ويطيب له ، وكان له هذا الحديث يدور حول باردالیان :

سألته :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ ما الذي سمعته منه .. او ما الذي فعلـه لأجلك حتى صرت مخلصا له الى هذه الدرجة ؟

قال :

ـ لقد حدثني بأمـور كثيرة لم اسمعها من سواه ، وسأحدثك بها في المستقبل .. فهل انت مستعدة لمساعدته رغم الاخطار التي قد تتعرض لها ، والتي قد يكون التعذيب والموت من بينها .

وارتجفت حنة حين سمعت كلمة الموت ولم تكن قد استعدت وهي لا تزال صغيرة لمثل هذا الجو الجاهم من الحياة .. وكان موقفها دقيقا جدا .

فقد كانت تحب باردالیان كأخ ، وتحب القزم في الوقت نفسه .

احبت الاول لانه مثال الشجاعة والقوة ، واحبت الثاني لكونه كان مثال اللطف والاخلاص .. والدعة .

وقد قبضوا على الاول ، ويريـد الثاني انقـاذه ، فاذا قضى سوء الطالع بأن يموت الرجلان اللذان كانت كل امالها في الحيـاة معلقة فيهما فماذا يبقى لها في الحياة ؟

والافضل امام هذه الحالة الاستسلام للقدر والعمل يدا واحدة ، فاما انقاذ باردالیان ، واما الموت جميعا في سبيله .

ونظرت الى القزم فاذا به يبدو امامها رجلا قويا قادرا على انقـاذ صديقه من الخطر الذي يهدده .

وعندئذ صاحت بصوت مؤثر :

ـ سأكون شريكتك في السراء والضراء ومستعدة لاقتحـام كل الاخطار لاجلك .

ولم تكد تنطق بهذه العبارة حتى احمرت خجلا ، فقد كانت اعترافا منها بحبها للقزم ، ولكن هذا فهم .. انها مستعدة لاقتحام الاخطـار في

سبيل باردالیـان الذي كان الحديث يدور بصدده ، واعتقد انها لا تزال تحبه ، وان كان الفارس صادقا فيما قاله من انه لا يحبها .

ولما وصل في تفكيره الى هذا الحد اضطرب وجزع ولكنه تمالك عواطفه ، وضبط نفسه ، وقال :

« اذا كانت تحب باردالیان فسيعتبرها هو صديقة له ، وسيعـدل عن التفكير في حبها والحصول عليها » .

ثم سألها بصوت عال :

ـ ما الذي فعله باردالیان لاجلك حتى تحبينه الى هذا الحد ؟.

فقالت له تردد ما قاله لها سابقا :

ـ لقد قال لي امورا كثيرة لم اسمعها من سواه .

وارتجف القزم ولزم الصمت .

— ٤ —

الجوع والسم

قرر القزم المضي في الخطة التي رسمها لنفسه من مساعدة باردليان وانقاذه .

واخرج من جيبه الامر الذي عثر عليه وقال لحنة وهو يتظاهر بالسكينة :

— انظري الى هذه الورقة يا سيدتي وقولي لي كيف نستطيع الانتفاع منها ؟

وتمالكت حنة اعصابها بدورها ، تحاول تقليده في سكينته وهدوئه واخفائه لعواطفه وتناولت الورقة وبعد ان تأملتها مليا قالت :

— لست ارى عليها الا خاتمين وتوقيعين غير تامين .

فسألها القزم :

— هل تستطيعين قرائتهما يا حنة ؟

— انهما خاتما الملك وتوقيعه ، وبجانبهما توقيع المفتش الاعظم .. واسمع ما اتلوه عليك من الكلام الموجود على هذه الورقة .

« نحن فيليب بحمد الله ملك اسبانيا نأمر كل ممثلي السلطة الدينية والمدنية والعسكرية ... وفي اسفل هذا الكلام توقيع الملك والمفتش الاعظم .

فقال القزم :

— لقد ادركت خطورة هذه الورقة الآن فهي امر على بياض وحاملها يكتب ما يريده في الفراغ الموجود فيها ، فيقوم المسؤلون بتنفيذه .

سألته حنة وقد ملكتها الدهشة :

— كيف عثرت على هذه الورقة ؟

— المهم الآن اننا نملك هذا الامر ، الذي عرفت خطورته . فاكتمي هذا الخبر عن جميع الناس .

— وما الذي ستفعله بهذا الامر ؟

— لست ادري حتى الآن .. ولكني اعتقد ان استخدامه سيفيدني في انقاذ الفارس باردليان .. فاذا عرف انسان بأن هذا الامر لم يعط لي ، واني ملأت فراغه لمصلحتي ، حكم عليّ بالاعدام ، كما سيكون هذا سببا لموت باردليان ايضا .. ولهذا رجوتك كتمان هذا السر .

فقالت :

— سوف اكتمه فلا تخف .

ودّعها ومشى نحو الباب ، فمدت يدها نحوه وناديته باسمه فارتد اليها ، ولو اندفع اليها لضمته الى صدرها ، ولكنه لم يفعل ، فظل سوء التفاهم قائما بينهما دون ان يفطن احدهما لعواطف الآخر نحوه .

قالت له :

— اتذهب وتتركني .. أليس عندك ما تقوله ايضا ؟

وضرب جبينه بيده كأنما تذكر امرا ، وقال :

— يا الهي ما اشد غفلتي .. لقد نسيت جيرالدا ؟

وغضبت (حنة) وسألته عن سبب اهتمامه بها فأجابها :

ـ انها خطيبة الدون سيزار وانا حاجبه .

فخجلت من غيرتها وتمالكت نفسها ، وقالت :

ـ صدقت .

وقال القزم :

ـ الم تشاهديها في حفلة المصارعة لقد كانت قدام الجميع فيها .

فقالت :

ـ لعلها تمكنت من النجاة قبل المعركة ، ولا بد انها ستأتي الى النزل اليوم للسؤال عن خطيبها .

ـ انها لن تأت .

ـ وكيف عرفت ذلك .

ـ لانها كانت محاطة باشخاص رابني امرهم ، واظن اني رأيت كريستوبال بينهم .

ـ ومن يكون هذا الرجل ؟

ـ انه اليد اليمنى لذي اللحية الشقراء ، ومن سوء الحظ ان الفارس باردالبان قد عفا عنه وانقذه من الثور ، مع كونه عدوا لدودا له .

فقالت حنة :

ـ اذا جاءت جيرالدا لزيارتنا فسوف اخفيها عندنا ، واحافظ عليها .

فوافق القزم على اقوالها وقال :

ـ اني اعرف المكان الذي سجن فيه باردالبان ، وعليّ ان اعرف المكان الذي توجد فيه جيرالدا ، حتى اذا ظهر الدون سيزار من مخبأه اعلمته بخبرها .

وحاول ان يودعها ثانية فسألته متى ستراه ، فقال :

ـ لا ادري فقد ازورك بعد ايام ، او يوم .. كل هذا يتوقف على مجرى الامور والحوادث .

وقبل ان يغادر الغرفة قالت له :

ـ الا تقبلني قبل انصرافك ؟

قالت هذا ومدت اليه يديها ، فحنى رأسه وقبّل اطراف انامله وغادر الغرفة مسرعا فقالت لنفسها :

ـ لم تكد شفتاه تلامس انامله ، وكان في الماضي يخر جاثيا امامي ويعفر وجهه بالتراب واما اليوم فقد اقتدى بالشباب الظرفاء في توديعه لي ، واذا فهو لا يحبني .

واخذت تبكي .

★ ★ ★

كانت الغرفة التي وضعوا فيها باردالبان حسنة نظيفة فيها فراش وثير ومقعد كبير وخزانة للثياب وطاولة وعليها كل معدات الزينة .

ولولا القضبان الحديدية الموضوعة على النوافذ والاقفال الضخمة الموصد بها الباب لظن نفسه في نزل او فندق .

وكان الرهبان قد نزعوا عنه اغلاله ، واخبروه انهم سيقدمون له عشائه قريبا .

فحص نفسه فاذا هو لم يصب بغير خدوش بسيطة ، وتفحص الغرفة فوجد ان محاولة الهرب منها ضرب من المستحيل .

وكان الطعام الذي قدموه له جيدا ، واللحوم والخبز مقطعا ، حتى لا يحتاج الى سكين لذلك .. ولا شوكة ولا اي شيء مما يمكن استعماله كسلاح ضد الذين يخدمونه او يمكن ان يزوروه في غرفته .

WWW.mlazna.com RAYAHEEN
www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد شغلته ملاحظة الرهبان له ، فحسب الف حساب لها ، ولما انتهى من طعامه شعر بثقل في رأسه ، ورغبة في النوم فعجب لذلك ، ونام ولما افاق من نومه في صباح اليوم التالي ، وجد الثقل في رأسه قد تزايد ، كما انهم قد نزعوا عنه ثيابه ، وقد نام بثيابه كما يذكر .

ولما اراد مغادرة سريره احس ان قدميه لا تحملانه ، وهو ما لم يصادفه في حياته ، فجر نفسه الى المغسلة حيث غسل وجهه ثم وقف امام النافذة يستنشق الهواء ، فتحسنت حالته قليلا .

ولما اراد ارتداء ملابسه وجدها قد تبدلت ثيابا جديدة ، فأجال نظره فيها ، ثم صاح ضاحكا :

ـ لقد سقوني مخدرا كما يبدو لينزعوا المهماز من حذائي .. ولكن اين كيس دراهمي .. لقد اخذوه كما يظهر ، واعطوني مكانه هذا الثوب الغالي .

ولكنه ما لبث ان شاهد كيسه على الطاولة ، فتناوله مسرورا وهو يقول :

ـ لقد تسرعت في الحكم على اعدائي ، ولكن عليّ ان احذر شرابهم وطعامهم ، الا اذا كانوا قد فعلوا ذلك لمرة واحدة ، ولنزع المهماز فقط .

وكان ما توقعه صحيحا فقد قدموا له طعاما في اليوم التالي ليس فيه شيء من المخدر .

وفي صباح اليوم التالي وفيما كان يذرع الغرفة حول النافذة ، سمع سقوط جسم قريب منه ، فالتفت فشاهد كرة وقعت في ارض الغرفة ، فأسرع الى النافذة فشاهد شبحا يجتاز الحديقة مسرعا فعرف فيه القزم ، فعجب لوصوله الى هذا المكان ، وذهب الى الكرة فالتقطها ، وكانت ملفوفة بقطعة من القماش ، وبداخلها ورقة قرأ فيها ما يأتي :

« لا تأكل ولا تشرب ما يقدمونه لك ، لانهم يريدون قتلك بالسم .. وسأتمكن من انقاذك قبل ثلاثة ايام .. واما اذا فشلت فيمكنك تناول السم الذي يصنع شاربه في الحال ، فانتظر ثلاثة ايام ولا تيأس » .

وبعد ان درس موقفه قرر العمل باشارة القزم ، وكان عنده بقية من عشائه بالامس ، فقسمه على ان يأكله على دفعتين .. اذا ما عضه الجوع .. لانه لم يكن مسموما وقد جربه .. واكل القسم الاول حالا ، واخفى الثاني في خزانة الملابس .. ثم اخذ يفكر .

وفيما هو في شأنه اقبل عليه المفتش الاعظم هادئا فاستقبله باردالیان حذرا مستعدا .

وكان اسبينوزا بعد ان قبض على باردالیان قد توجه الى البرج الذهبي حيث يقيم موتتالت وخصه الدوق ، وصالحهما في شيء من العناء طبعا ، بعد ان قرر ارسالهما الى روميه ، ليعملا على انتخاب البابا الذي يريده .

وكان اسبينوزا قد اخبرهما بمصير باردالیان ، وذهب بهما الى الدير فأراهما اياه شبه ميت بسبب المخدر الذي تناوله في طعامه ، حتى يطمئنا الى ان باردالیان هذا لن يصل بعد اليوم الى فوستا ، وان مصيره قد تقرر نهائيا .

قال اسبينوزا يخاطب باردالیان عند دخوله عليه :

ـ يسؤني يا سيدي الفارس ، اني اضطررت لاستعمال العنف معك .

ـ اني متأثر يا سيدي المفتش من رقة شعورك وندمك على عملك .

ـ والواقع ان الذنب ذنبك ، فقد انذرتك بالعودة الى فرنسا ، وترك اسبانيا لاهلها .. ولتعلم باني جئت لزيارتك لاتأكد من راحتك ومن انهم يعاملونك معاملة حسنة تليق بك .

ـ اني لا اشكو من شيء .. وسأذكرك بالشكر عند مغادرتي هذا المكان .. لاني سأغادره بالتأكيد .. ولكني اريد ان اسألك سؤالا :

ـ تفضل .

ـ في اي يوم من ايام الاسبوع نحن ؟

فقال المفتش بدهشة :

ـ نحن في اليوم السبت ، وقد قبض عليك يوم الاثنين .. وانت سجين منذ اسبوع تقريبا .

فقال باردالیان لنفسه :

ـ لقد نمت يومين وليلتين دون ان افطن لامري .. فما نوع المخدر الذي سقاني اياه هذا الرجل ؟

ـ اراك لم تأكل طعامك .. فاذا لم يعجبك فاطلب غيره وما تشتهيه لاني سألت رهبان الدين الذين يتولون حراستك ان ينفذوا كل ما تطلبه منهم الا اذا طلبت مغادرة هذا المكان طبعا .. واذا كنت تشكو من عدم الحركة ، فباستطاعتك التنزه في حدائق الدير فما رأيك ؟

ـ اني اكون شاكرا .

ـ اذا تفضل واتبعني .

وذهب به المفتش الاعظم الى الحديقة فاذا هي غاصة بالرهبان بحيث لم يكن باستطاعة باردالیان ان ينجو بنفسه ، او ان يأتي بحركة دون ان ينقض الجميع عليه .

واخذ باطراف الحديث في اثناء هذه النزهة ، وباردالیان يحس في قرارة نفسه بأن في الجو شيئا ، وان المفتش الاعظم لم يسمح له بهذه النزهة الا لغرض في نفسه .

ولما وصلا الى رواق عريض يمتد حول الدير ، شاهد باردالیان عددا كبيرا من الرهبان في اماكنهم لا يتحركون فقال في نفسه :

ـ لقد وصلنا الى النهاية ، وسيحدثني اسبينوزا بما يريده مني الآن .

وقال المفتش :

ـ اني لا اضمر نحوك عداء شخصيا ، وانما اعمل بما تقتضيه وظيفتي ، ومتى كنت قائما بأحد هذه الاعمال تزول عني كل العواطف الانسانية ، وانا اكلمك الآن وانا بهذه الحالة والصفة .

ـ قل ما تريده مهما كان رهيبا فأنا اعزل من السلاح كما تعلم .

ـ لقد اهنت جلالة الملك وحكم عليك .. فيجب ان تموت .

ـ وما الطريقة التي تريدون قتلي بها ؟

ـ ان العقاب يكون بنسبة الجرم ، وانت رجل لا مثيل لك ، فلا تعجب اذا كان عقابك هائلا .

وتمالك باردالیان عواطفه ، ووضع يده على كتف المفتش وقال له بصوت منخفض هادىء :

ـ هل تعلم اني اتشوق لخنقك لانقاذ العالم من حشرة مثلك .

واجابه المفتش بمثل هدوئه :

ـ اني اعرف نواياك نحوي .. وقد اتخذت احتياطاتي ، ولولا ذلك لما تركتك حرا .. مطلق اليدين .

وكان الرهبان قد انفوا حولهما حلقة اخذت تضيق رويدا رويدا..

فهز باردالیان رأسه وقال :

ـ اذا كان الامر كذلك فليس ما يمنعني من التجربة على كل حال.

وازداد ضغط باردالیان على كتف المفتش .

فقال له المفتش :

ـ اقول لك انك لن تنجح ، وستضطرني الى تقييدك بالاغلال في المستقبل .

وقرر عندئذ باردالیان ، ان يؤخر عقابه ، بعد ان ادرك استحالة نجاحه .. وقال للمفتش :

ـ صدقت .

وامر اسبينوزا على الاثر احد الرهبان ففتح بابا ، وقاد باردالیان الى غرف التعذيب الرهيبة ، حيث شاهد ما حيّره ، وهزه ، وارعبه واخافه من انواع التعذيب ، تجري على المسجونين في هذه الغرف ، حتى صاح باردالیان قائلا :

ـ يا للهول ويا للفظاعة !

فقال له المفتش :

ـ ان جرمك اعظم من جرائم هؤلاء ولهذا فسيكون عقابك اشد وأقسى .

ومضى به المفتش من غرفة الى اخرى ، وهو يرى فيها من انواع التعذيب ما لا يخطر على عقل انسان .

واخيرا اعادوا باردالیان الى غرفته ، وهو في اشد حالات الاضطراب والقلق والذعر لما شاهده ورآه ، فلما احتوته الغرفة ، اخذ يضحك ضحكا عاليا لو سمعه المفتش لذعر واضطرب .

ولما حمل له الراهبان طعامه لم يتناول منه شيئا ، مع شدة جوعه ، عملا بنصيحة القزم .

ومر اليوم الثالث وهو لا يأكل شيئا ، والرهبان تقدم له الطعام الشهي خمس مرات في النهار الواحد ، مما اضطر باردالیان اخيرا الى ان يعرض على الراهبين اللذين يقومان بخدمته ان يتناولا شيئا من طعامه ، ليتأكد من سلامته ، ولكن الاوامر كانت قد صدرت اليهما بأن لا يتناولان شيئا من طعام السجين ، وقد صرحا له بذلك ، فراح يظن ان سبب امتناعهما يعود الى ان طعامه مسموم .

وعند ظهر اليوم الثالث دعاه الرهبان الى الذهاب معهما لغرفة المائدة ، لانهما قد اعدا له طعاما شهيا ، فرفض اولا ، ثم قرر الذهاب معهما ، بعد ان اعلماه بأنهما سيضطران الى حمله اذا لم يقبل .

وخطر له في هذه اللحظة انه قد يستطيع قتلهما والهرب من المكان فأجابهما عندئذ الى طلبهما .. وذهب معهما .

ولما وصل باردالیان الى غرفة المائدة أقفل بابها خفه ، وظل حارساه معه .

وكانت غرفة مربعة السقف واسعة الجنبات ، خشب سقفها من الخشب الثمين وأندره ، وفيها من بدائع الحفر والنقش ما يحير العقول ويذهل النفوس .

كانت مزدانة بمختلف الرسوم ، والبسط النادرة .. وفي وسطها موقد كبير للتدفئة ، يوقدون فيه الاخشاب النادرة والازهار ذات الرائحة الذكية ، وقد وضعت حول بركة من الرخام الابيض بشكل هرم ، فيسمع المرء خرير المياه في هدير لطيف يثيره ويهزه .

وكانت تنتشر في الغرفة رائحة عطرية غريبة من شمعة كبيرة ، بحيث كان كل ما فيها والحالة هذه يبعث الشهية في نفس المرء ، خصوصا اذا نظر الى المائدة الكبيرة التي كانت مبسوطة في وسطها ، وعليها مختلف انواع المآكل الشهية والفواكه النادرة موضوعة في آنية من الفضة ، بحيث كان يكفي الاكل الذي فيها لعشرين رجلا .

وكان الراهبان بالتأكيد قد ضاق ذرعهما بهذا الرجل الذي يرفض هذه المآكل الطيبة الشهية .

وقد صرفا همهما لحمل باردالیان على تناول طعامه في الايام المنصرمة كما قدمنا فكان هذا يرفض الطعام رفضا باتا ، فلما أتيا به الى هذه الغرفة ، وفيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، ظنا منهما انه سوف يضعف

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أمام هذه المآكل الشهية وهو الذي اشتد به الجوع الى الحد الاقصى .

وشكر بارداليان للراهبين جهودهما في تحضير هذه الاطعمة الفاخرة ولكنه أصر على عدم تناول شيء منها .. رغم رجاء الراهبين وقولهما له ان فشلهما في اطعامه او في حمله على تناول الطعام سيؤثر في مركزهما ، وقد لا يستطيعان الجلوس مع زملائهما الرهبان في المستقبل .

واخيرا اعاده الى غرفته دون ان يأكل شيئا وهو منهوك القوى ، فلما احتوته ارتمى على مقعده يفكر في جوعه ومصير واعدائه .

فلما كان اليوم التالي لم يحصل اليه الراهبان شيئا من الطعام .

ولما اقبل الظهر ولم يظهر الراهبان ايضا ، بدا القلق على وجهه وقال :

— هل قرر خصومي اماتتي جوعا ؟ وعدلا عن السم كما فعلوا قبلا؟

وفكر في القزم الذي وعده بانقاذه بعد ايام ثلاثة .. ثم ضرب على رأسه وقال :

— من يدري فقد يكون قد اقدم على عمله ولكنه فشل وقبضوا عليه ، وعرفوا غرضه ، فلم يعودوا يقدمون لي الطعام .

فلما اقبل المساء ولم يصله شيء من الطعام ، تقدم الى الباب وقرعه، فسمع صوتا غريبا عنه يقول :

— هل تريد شيئا ايها الفارس ؟

— اريد طعاما الا اذا كنتم قررتم اماتتي جوعا .

فقال الصوت :

— اذا كنت تريد الأكل فما الذي يمنعك ؟ الا يوجد في غرفتك كل ما انت بحاجة اليه ؟

فقال بارداليان :

— ليس في غرفتي شيء من الطعام .

— يا الهي ما هذا الخبر .. لقد كنت اظن ان الراهبين المكلفين بخدمتك قد قدما لك ما تحتاجه قبل ان يغادرا الدير بالاجازة هذا الصباح .

« ولكن قل لي ايها الفارس لماذا تمنعت عن الاكل كل هذه الايام.. وجئت تطلبه الآن في غير الوقت المناسب ؟ »

— ما معنى هذا الكلام ؟

— معناه ان كل من في الدير نيام .. ومن المستحيل ان نقدم لك شيئا الآن .

فاطمأن بارداليان لما سمعه ، وقال لنفسه :

— لقد صبرنا كثيرا فلنصبر ايضا .. لنرى ما يكون من شأنهم معي .

وقال بصوت عال :

— لا بأس .. فسأنتظر الى صباح الغد .

— غدا ترى ما يسرك يا سيدي .

فلما كان صباح اليوم التالي لم يحصل احد شيئا من الطعام لبارداليان.

فأخذ هذا يفكر في تفسير ذلك ، وفيما اذا كان اعداؤه بعد ان حاولوا اغراءه بالطعام الشهي ورفضه ... يريدون تعذيبه الآن .

ولما حان وقت الظهر اقبل الرهبان يعتذران له بانهما لم يقدما له طعامه لانه رفض الاكل اكثر من مرة .. فأجابهما ان هذا ليس بعذر .. وانه كان مستعدا لتناول طعامه البارحة .

سأله احدهما فيما اذا كان مستعدا الآن .. فأجاب بالايجاب ، فبدا السرور على وجهيهما واخذاه الى غرفة المائدة ، حيث راح يتناول الطعام حذرا ، وهو يسأل نفسه فيما اذا كانت هذه اللقمة سوف تصعقه ام لا .

ولما شبع وارتوى عاد الى غرفته وهو يقول في نفسه :

— لقد رويت غليلي من الطعام والشراب ، ولا ازال حيا ، والقزم يقول انهم يريدون تسميمي الا اذا كانوا قد وضعوا لي سما بطيئا ، فلننتظر والحالة هذه ما سوف يكون .

ولم يأت الراهبان لزيارته في ذلك اليوم ، وكان قد اكل بنهم زائد فلم يحس والحالة هذه بالجوع ، ولكنه أراد معرفة السبب في عدم جلبهما له طعامه في المساء فقرع الباب ، فأجاباه بأن عهد الولائم قد انتهى .. وانهما يظنان انه قد ارتكب ذنبا فقرر الرؤساء قصاصه بعدم تقديم شيء من الطعام له .. ولما كان من حقهما ان يتناولا الباقي من طعامه الشهي فان خسارتهما والحالة هذه مثل خسارته .

ولما سألهما باردااليان عن السبب الذي دعاهما لرفض ما كان يعرضه عليهما من طعامه ، أجاباه بأن الامر صدر اليهما بذلك ، ولا حق لهما بتناول شيء من طعامه الا ما يتبقى منه .. واما لو حاولا تناول شيء من الطعام قبله ، فان القصاص الصارم سوف يكون من نصيبهما .

— ٥ —

القبر المخيف

افاق باردااليان من النوم في اليوم التالي كعادته وجلس الى جانب النافذة ، وظل ساعات لا يأتي بحركة وهو يفكر بمصيره ، وبالسبب الذي يدعو المفتش الاعظم الى معاملته هذه المعاملة ؟

وكان قد علم من احد الرهبان انهم قد قضوا عليه بالصوم مدة من الزمن ، واذا كان الامر كذلك ، فان احدا والحالة هذه لن يزوره في غرفته .. ولن يقدموا له شيئا من الطعام او الشراب .

تركوه اياما ثلاثة دون ان يقدموا له شيئا .. فازداد ضعفا على ضعف ، حتى لقد كان يخيل لمن يراه انه اصبح لا يقوى على الوقوف على قدميه ، فكان يجر نفسه جرا ليصل الى النافذة او ليذهب الى سريره .

وكان قد مر عليه ثلاثة عشر يوما وهو سجين في هذا الدير ، فتبدل وتغير ، واصبح يقضي الساعات في مكانه لا يتحرك ولا يتكلم .

فلما كان اليوم الرابع اتاه الحارسان بقطعة من الخبز الاسود اليابس ، واناء فيه ماء ، ونصحاه ان لا يفرط في طعامه وشرابه هذا لانه لن يحصل على شيء في اليومين المقبلين .

ويبدو انه لم يسمع نصيحتهما ، فما مضت ساعتان حتى اكل نصف الخبز ، وشرب نصف اناء الماء .

وكان الراهبان يراقبانه كما يبدو ، لانهما ما لبثا ان دخلا عليه وطلبا منه ان يتبعهما ، فنهض من مكانه في كثير من الصعوبة دون ان يعترض او يقول شيئا ، حتى كأنه لم يدرك ما يقولان له فأمسكه الرهبان من ساعديه واجتازا به عدة اروقة ، ثم نزلا به طابقين ، حيث فتح امامهم باب ادخلاه فيه ، فأطاعهما دون ما اعتراض ، ووضع الرهبان ما تبقى من خبزه ومائه على الارض ، وانصرفا .

وذهب احدهما يونيستا الى رئيس الدير فأخبره بأنهما قد انجزا مهمتهما وان بارداليان لم يبد ممانعة ولا معارضة ، وانه لا يدري اذا كان الجوع قد أثر على اعصابه فهده وافقده كل قوة وتفكير .

وانه اذا ظل اياما على هذه الحالة ، فهو سيجن بالتأكيد .

فقال رئيس الدير :

ـ سوف ارسل الآن الطبيب للتأكد من حالته .. هل انت على يقين من تناوله زجاجة الخمر التي أوصيناكما باعطائها له يوم دخوله الى الدير ؟

ـ نعم .. لقد فعلنا ، ولم يترك فيها نقطة واحدة .

ـ اذا كان الامر كذلك فلا عجب اذا وصل الى هذه الحالة من الانهيار .. واعلم ان مولانا المفتش الاعظم مسرور منك انت ورفيقك لنجاحكما في هذه المهمة .

وكان السجن الجديد الذي اخذوا اليه بارداليان خاليا من كل اثاث ، مظلم ضيق بحيث اضطر الفارس للجلوس على الارض بعد ان انهكه الجوع والتعب .

ومضت عليه ساعات كثيرة لم يعرف عددها وهو في حالته هذه ،

حتى احس بالجوع فتناول ما تبقى من الخبز الاسود والماء .

وكانت حرارة السجن شديدة لا تطاق وكان مصدرها سقف سجنه كما خيّل له ، كأن أتونا قد احتدم فوقه ، حتى ضاق صدره ، وعسر تنفسه ، واخذ العرق يتصبب من رأسه وجسمه .

وفجأة انبثق ذلك السقف الذي كان مصدرا للحرارة ، وظهر منه نور فجائي اضاء سجنه حتى كاد يعميه من شدته ، فانحسرت الحرارة التي كادت تخنقه ، وحلت محلها رطوبة شديدة تحولت بعد قليل الى برد قارس جعله يرتجف من رأسه الى اخمص قدميه ، وانتشرت في الغرفة رائحة كريهة جعلته يرتمي الى الارض واهن القوى خائر العزيمة ، تصدر منه حشرجة ضعيفة كأنما هو في حالة من النزاع .

وفجأة اختفت الرائحة الكريهة وحلت محلها رائحة عطرية ، وعادت الحرارة تطرد البرد القارص .. وكانت هذه الحرارة معتدلة ، فانتعشت نفس بارداليان وهدأت اعصابه .

ومن غريب امر بارداليان انه ظل ممسكا بردائه رغم الحرارة ، لا يريد نزعه عن جسمه ، حتى قبل دخوله الى هذا السجن ، بحيث اصبح رداؤه جزءا منه ، حتى ان حارسيه لم يفطنا لاصراره على التمسك به ، ولا اهتما بالامر .

ولما عاد بارداليان الى حالته بعد الجو المعتدل الذي انتشر في سجنه، طوى رداءه بعد ان نفضه وجلس عليه ، واكل بقايا الخبز الذي عنده وشرب الماء ، فاستعاد شيئا من نشاطه واخذ ينظر الى ما حوله يتفحص المكان الذي كان فيه .

وفي تلك اللحظة سمع حركة من الجهة اليسرى ، فنظر الى تلك الجهة فشاهد نصلا بعرض الكف ، لا يزيد طوله على القدمين ، محدد الرأس قد برز من الحائط على مقربة من وسطه ، ثم اخذ يدور افقيا حتى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كاد يلامسه فيقطعه الى شطرين ويودي بحياته .

ولو كان باردالیان بحالته الطبيعية ، لما خاف ولا وجل ، ولكن الدواء العجيب الذي تجرعه والذي وضعوه له ، لم يقتصر على افقاده ذكاءه العجيب ، بل جعله عاجزا جبانا يرتجف لاهون الاشياء فلما شاهد النصل ارتمى على الارض خوفا خصوصا بعد ان ظهر نصل آخر من الجهة الاخرى .

وبينما هو في حالته هذه ظهر منجل ثالث فوقه واخذ يتحرك حتى كاد يصل اليه ويقطعه ايضا .

ولو كان باردالیان في حالته الطبيعية لادرك ان ظهور هذه المناجل لا يراد منها غير تعذيبه وتخويفه ، لانها في الواقع لم تكن تصل اليه الا بمقدار ، ولما تحركت الارض من تحته واخذت تميل به جهة المناجل ، استبد به الخوف ، واثّر عليه العذاب الذي ألمّ به فلم يعد ذلك الرجل القوي القلب الذي لا يخاف الموت ولا يرهب احدا .

تولاه القنوط والذعر فصاح :

ــ توقفوا .. توقفوا لا اريد ان اموت .. فلم يسمع احد صراخه ، واخذت ارض الغرفة تميل نحو المناجل رويدا رويدا ، حتى سقط اخيرا بين المناجل ، ولكنه في الواقع لم يمت ، لان هذه المناجل كانت ليلة كاذبة ابتكرتها قرائح خصومه لتعذيبه وتخويفه .. ليدفعاه الى الجنون .. بعد ان فشلا في التغلب عليه بالقوة الجسدية .

وكذلك أغمي على باردالیان من هول ما شاهد ورأى ، وظل كذلك ساعات فلما عاد الى وعيه القى على ما حوله نظرة ليس فيها شيء من معاني الحياة فوجد نفسه في قبو تعادل مساحته تماما مساحة الغرفة التي كان فيها ، ولم يفطن الى انه سقط من هذه الغرفة الى هذا القبو قبل ان يغمى عليه ، ولم يكن في سجنه الجديد شيء من الاثاث كما لم

يكن له الا مخرج واحد ، وهو باب مثبت بالاقفال الضخمة .

كانت ارض السجن الجديد من التراب ، وجدرانه ضخمة معفنة ورائحته كريهة قذرة .

اخذ باردالیان يضحك لما شاهد نفسه في هذا المكان ، واخذ بطرف ردائه يلعب به ويخاطبه كالاطفال ، فيزجره تارة ويقبّله اخرى ، ويضحك ضحكا يدل على جنونه ، وظل على حالته هذه ساعات لا يفطن لنفسه ولا يدرك من امره شيئا .

وفيما هو في حاله هذا اقبل عليه راهب يحمل اليه خبزا وماء ، وكان يحمل عصا في يده ، فصاح باردالیان لما شاهده :

ــ رحماك لا تضربني .

واخفى وجهه بذراعه ، وتأمله الراهب برهة مستغربا حاله ، وتمتم يقول لنفسه :

ــ من العبث ان اخبره بأني أتيته بالخبز والماء ، فهو قد فقد عقله بالتأكيد .

وغادر السجن وظل باردالیان مدة طويلة لا يرفع يديه عن وجهه ، حتى تأكد من ذهابه فعاد يلعب بأطراف ردائه .

★ ★ ★

زاره الراهب مرتين بعد ذلك .. وفي كل مرة كان باردالیان يفعل ما فعله في المرة الاولى .

وفي المرة الثالثة كان اسبينوزا معه ، فأبدى الفارس الرعب لرؤيته وفعل ما فعله سابقا فقال له الراهب :

ـ انظر الى حالته يا سيدي ، فلم يبق من الفارس باردالیان القوي الشجاع الا هذا المخلوق الذي اصبح اشبه بالاطفال منه الى الرجال .

« ولقد اصبح لا يقوى على الوقوف واعجب كيف بقي حيا الى الآن » .

فقال المفتش الاعظم :

ـ لقد كنت عارفا بتأثير عملك العجيب ، ولكني خشيت ان لا يؤثر عليه التأثير المرغوب ، واما الآن فأهنئك على نجاحك .

وكان باردالیان في هذه الاثناء قد اتخذ زاوية واخفى وجهه بين يديه وهو يعول ويبكي ، حتى قال اسبينوزا :

ـ يجب ان يعود قليلا الى وعيه ليفهم مني ما اريد ان اقوله له .

فقال الراهب :

ـ لقد ابلغوني امرك يا سيدي وجئت معي بالدواء اللازم ، يكفيه ان يتناول بعض نقط من هذه الزجاجة الصغيرة ليعود الى وعيه وقوته ، غير اني انذرك بأن تأثير هذا الدواء لا يطول اكثر من نصف ساعة من الزمن .

ـ هذا الوقت يكفني .. وهو اكثر مما احتاجه .

اقترب الراهب من باردالیان الذي اشتد عويله ، ولم يعارضه حين امسك بوجهه وفتح له شفتيه وكاد يسكب له الدواء في فمه لولا ان اوقفه المفتش الاعظم قائلا :

ـ حذار ان تخطىء .. فاني سأتحدث الى هذا الرجل بمفرده ، واذا استعاد قوته ، فقد أتعرض لبعض الخطر ، ومع اني أتيت بخنجري معي فاني بالتأكيد عاجز عن الوقوف في وجهه .

فقال الراهب :

ـ كن مطمئنا يا سيدي ، فالسجين ستعود اليه قوته الاولى لمدة

ايام قليلة فقط ، ولكنه سيظل مشتت الفكر لا يفهم ما تقوله الا بجهد وعناء .

« ولن يخطر بباله ان ينتفع بقوته لانه سيبقى على حالته هذه كالطفل الصغير » .

وافرغ الشراب الذي حمله معه في زجاجة صغيرة في فم باردالیان ثم قال للمفتش :

ـ بعد خمس دقائق يعود السجين الى وعيه وعقله .

ـ اذن فاذهب واقفل الباب خلفك ولا تنتظرني .

ـ لا عليك مني .. فاني اعرف طريقة اغادر فيها هذا المكان دون ان امرّ من الباب .

غادر الراهب الغرفة واقفل الباب خلفه .. ودار اسبينوزا حول باردالیان يتأمله على ضوء المصباح الذي تركه الراهب على ارض الغرفة .. ليرى تأثير الدواء عليه .

★ ★ ★

شاهد جسمه يضطرب كله ثم يتنهد طويلا، ويعود الدم الى وجنتيه، والى عينيه نورهما ، ثم انتصب واقفا ينظر الى ما حوله لاول مرة .

ولما شاهد اخيرا اسبينوزا تراجع الى الوراء مذعورا ، حتى استوقفه الحائط ولكنه لم يصرخ هذه المرة ... ولم يستنجد ولم يبك ، واخذ يحدق بالمفتش الاعظم طويلا .. كأنما هو حيوان يريد ان يشم فريسته قبل القضاء عليها .

بدت على اسبينوزا امارات الاطمئنان ، وادرك ان باردالیان عاجز عن مسه بسوء وقال له بلطف :

ـ الم تعرفني يا باردالیان ؟

وبدا له انه يجهد فكره ليفهم ما يقوله محدثه ، واخيرا تمتم يقول :

ـ باردالیان ؟

ـ نعم انت الفارس باردالیان .

ضحك الفارس وقال :

ـ اني لا اعرف صاحب هذا الاسم .

اقترب منه المفتش الاعظم ، ووضع يده على كتفه فارتجف ، فقال له المفتش :

ـ لا عليك فاني لا اريد الاساءة اليك .

ـ اصادق انت فيما تقوله ؟

ـ انظر واحكم فهل ترى في وجهي ما يدل على رغبتي في ايذائك ؟

تأمله الفارس قليلا ، واخذ يبتسم .

وعاد اسبينوزا يقول :

ـ يجب ان تتذكر نفسك وتعود الى حالتك الاولى ؟

ـ وانت من انت ؟

ـ انا اسبينوزا .

ـ يخيل اليّ اني اعرف هذا الاسم .. لقد تذكرته .. انه رجل من أهل الشر فحذار منه .

ـ نعم .. انا اسبينوزا .. وانت باردالیان صديق فوستا .

ـ فوستا .. اني اذكر هذا الاسم ، وهي امرأة شريرة ايضا .. واني احذرك من اسبينوزا وفوستا .

فقال اسبينوزا :

ـ ولكني انا اسبينوزا .. انظر اليّ وتذكرني .

★ ★ ★

امسكه من ذراعيه وانحنى عليه حتى كاد يلامس رأسه وجهه .. فصرخ باردالیان ، وعاد الى زاويته وهو يقول :

ـ لقد عرفتك فأنت اسبينوزا ، الذي امرت بالقبض عليّ وتعذيبي واضعافي بواسطة الجوع والصوم .

ـ اذن فقد عادت اليك ذاكرتك .

فصاح باردالیان به :

ـ لا تقترب مني .. فقد عرفتك الآن ، ما الذي تريده .. هل جئت لقتلي ؟.. ابتعد عني فاني لا اريد ان اموت .

ـ صدقت يا باردالیان .. لقد كنت في الماضي رجلا قويا باسلا واذا الذي اوصلتك الى هذه الحالة من الضعف والهوان .. لا بد انك اخذت تفهمني قليلا .. ولكنك لا تلبث ان تعود الى جنونك بعد قليل ، وسأقتلك بالتأكيد ، ولكن ليس بالسيف ولا بالخنجر ، وانما بالموت جوعا .. داخل هذه الحفرة التي اعددتها لك والتي ستكون قبرك ، فانظر اليها قبل نزولك اليها .

قال هذا وأدار محركا سريا فظهرت فتحة في احد جدران السجن ، فتناول اسبينوزا المصباح الذي تركه الراهب على الارض ، وامسك بساعد باردالیان وجره الى الحفرة ، والفارس لا يبدي مقاومة لانه كان يجهل ان قوته قد عادت اليه ، مكتفيا بالبكاء والعويل .

وقال المفتش الاعظم :

ـ انظر يا باردالیان .. هذا قبر حقيقي لا نور فيه ولا هواء .. وستموت فيه جوعا وعطشا ، واعلم انه لا يوجد في العالم احد يعرف مكان هذا القبر سواي ، واذا قلت لك ان له مخرجا لا يعرف به غيري ، فلن يقدم هذا ولا يؤخر في مصيرك ، وبما انك لا تريد الموت حالا فستصرف كل وقتك قبل الموت في البحث عنه لعلك تعثر عليه .. واما انا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فسأخرج من هذا المكان ولا اعود اليه ، ولكن قبل خروجي سأدفعك الى هذه البلاطة فاذا دست عليها افتح باب قبرك ثم اقفل عليك بهذا الباب الحديدي الذي لن يفتح ابدا .

صاح باردالیان يقول : رحماك اني لا اريد ان اموت .

ـ اعرف ذلك .. ولكن مصيرك قد تقرر ، فالرجال الذين مثلك اذا لم يكونوا معنا ، فهم بمثابة خطر علينا ، فقد وقفت في وجهنا وأردت مقاومة مشروعنا ، فوجب ان تمـوت ، ولتعلم ان الوصيـة التي جئت لاجلها الى اسبانيا قد اصبحت معي .. انظر اليها .. انها تخول ملكنـا فيليب الثاني الحق بأن يكون ملكا على فرنسا .

واخرج الوصية من جيبه وأراها لباردالیان .

ولما شاهد باردالیـان ينظر اليها دون ان يقـول شيئا اعادها الى جيبه ، ثم وضع يده على كتف الفارس وقال له بلهجة الامر :

ـ والآن وقد قلت لك ما اردته فادخل الى القبر الذي اعددته لك.

ودفع باردالیان بشدة الى عتبة البلاطة .. وهو يقول :

ـ هذا هو قبرك .

وعندئذ حصلت المفاجأة .

فقد سمع صوتا تعود ان يسمعه في ماضيات ايامه يقول له :

ـ اذا كان الامر كذلك فلنمت معا .

وقبل ان يأتي المفتش الاعظم بحركة انطلقت يد باردالیان فقبضت على عنقـه وكادت تخنقه ، فرفـع يده يبحث عن خنجـره ، ولكن اليد الحديدية اشتدت في الضغط عليه حتى لم يعد يقـوى على التنفس ، ثم دفعه باردالیان بيده كما يدفع طفلا الى الحفرة التي كانت معدة له .

وبعد ان فعل ذلك تناول رداءه الذي لم يكن يفـارقه ، واجتـاز العتبة السرية بعد ان داس على البلاطـة التي دارت حول محورها ..

فأحدثت صوتا قويا ، ثم عاد الحائط الى ما كان عليه ولم يبق اثر للفتحة السرية .

وكان باردالیان قد سجن نفسه في تلك الحفرة السرية مع اسبينوزا الذي كان ملقى امامه لا حراك به .

ولكنه كان قد سجن معه عدوه ايضا .

- ٦ -

الخروج من القبر

وضع باردالیان رداءه والمصباح على الارض وجلس الى جانب خصمه في هذا السجن الحديدي الذي أعدّه لدفنه .

واحس في هذه اللحظة بأن قوته قد عادت اليه ، وذكاءه الذي فارقه قد رجع الى مكانه ، فظهرت على وجهه امارات السخرية لا يبالي بما هو فيه ، ولا بما سوف يكون .

وتذكر الوصية فبحث عنها في جيوب المفتش حتى عثر عليها ، وبعد ان فحصها وتأكد انها الاصلية وضعها في جيبه ، ثم اخذ خنجر اسبينوزا فوضعه في حزامه ، وبعد ان فتشه وتأكد من عدم وجود سلاح آخر معه، جلس على الارض وعلى فمه ابتسامته الساخرة الماضية .

ولما عاد المفتش الاعظم الى وعيه وشاهد باردالیان جالسا بقربه ، وتذكر الانقلاب العظيم الذي طرأ على الموقف ، راح يهوّن الامر على نفسه ، بأن باردالیان لا يلبث ان يعود الى جنونه وضعفه بعد نصف ساعة من الزمن كما اخبره الراهب الذي سقاه الدواء ، ولم يخطر قط بباله ان باردالیان قد مثل دوره ببراعة خدعت المفتش الاعظم نفسه وجميع من

اتصلوا به ، وانه بقوة ارادته قد جعل الجميع يظنون انهم قد تمكنوا منه حقا وتغلبوا عليه ، بينما كان في الواقع يخادعهم ويمثل دوره الجنوني ببراعة لا مثيل لها .

راع اسبينوزا الخطر الداهم الذي يتهدده ، واخذ العرق يتصبب من جسمه ، ولكنه تظاهر بالسكينة ريثما تنتهي النصف ساعة ، وبحث عن خنجره فلما لم يجده ، ظن انه وقع على الارض ، فجعل يدير نظره حوله ، ففطن باردالیان لحركاته وقال له :

ـ لا تتعب نفسك فخنجرك معي ، وقد احسنت صنعا بحملك هذا السلاح الذي قد ينفعني عند الحاجة .

وخطرت له في هذه اللحظة فكرة جديدة ، فأخذ يبحث عن الوصية في جيوبه فلم يجدها .. فذعر ، واشتد خوفه ، وادرك ان الفارس قد خدع جميع الذين قاموا بحراسته ، فمثل امامهم دور المجنون الضعيف تمثيلا رائعا . جعلهم يقعون جميعا في حبائله وحيله .

وفهم باردالیان ما يجول بخاطر المفتش الاعظم ، فقال له :

ـ لقد اخذت منك الوصية التي تفتش عنها .. وكان يجدر بك ان تكون حذرا معي ، وان لا تعاملني هذه المعاملة السيئة ، ولا تحاول الاساءة اليّ الى هذا الحد ، وقد كان باستطاعتي كما تعلم ان اقتلك الآن واقضي عليك ، ولكني لم افعل .. لاني كنت واثقا من انكم سوف تضحكون على انفسكم في المستقبل ، واني سأنتصر عليكم جميعا .

سأله المفتش دهشا :

ـ اذاً فقد تخلصت من السم الذي تجرعته .

فقال باردالیان ضاحكا :

ـ كان عليكم ان تكونوا اكثر حذرا معي .. والسم لا يعطى بالشكل الذي اعطي اليّ لان طعمه الخاص يفضح سره ، ولهذا سكبت

ما في الزجاجة في مجرى الماء ونجوت من شركم .

ـ وكيف عرفت اني احاول دفعك الى الجنون ؟

ـ من كلمات قالتها فوستا ، ومن حركات قام بها حرسك .. ثم اني كنا تعلم من الذكاء بحيث افطن لما يراد بي .

« وكان عليّ ان امثل دورا على كل حال وقد مثلته ونجحت » .

سأله اسبينوزا :

ـ ولكن كيف استطعت الاحتفاظ بقوتك رغم الجوع الذي تولاك كل هذه المدة ؟ لاننا في الواقع لم نقدم لك الطعام الا مرتين ، خلال الخمسة عشر يوما .

فقال باردالیان ساخرا :

ـ لقد كنت اضع في ردائي هذا بعض الطعام الذي كنت احتاج اليه ، فكان هذا الرداء مستودع طعامي ، اتناول منه ما لا استطيع الاستغناء عنه لئلا اموت جوعا ، وكنت انتهز فرصة اهتمام حراسي بدعوتي الى تناول الطعام ، لاخفي بعض الفاكهة والثمار ، والخبز في ردائي هذا ، كما اخفيت فيه زجاجتين من الخمرة المعتقة ، ولما شربتهما اخذت اضع فيهما الماء الذي يقدم اليّ .

« وكنت واثقا اني اذا تظاهرت بالجنون والضعف والانهيار والامتناع عن تناول الطعام ، فتحاول الاجتماع اليّ لتشفي حقدك ، وعندئذ يكون لكل حادث حديث » .

قال المفتش الاعظم :

ـ لقد صرت اسيرك الآن فما الذي تنوي عمله ؟

ـ اريد منك قبل كل شيء ان تأمر بفتح هذا الباب الرهيب لانك انت وحدك تعرف سره .

ـ واذا رفضت طلبك ؟

ـ نموت معا هنا .

ـ لنمت معا اذاً .. وستتعذب مثلي .

فقال باردالیان :

ـ بالعكس لن اتعذب مثلك .. لان عندي من الطعام ما يكفي اياما .. وسوف تموت انت قبلي ، بعد ان تتعذب عذابا رهيبا ، ومتى جاء دوري انتحرت بهذا الخنجر فلا اتعذب ابدا .

« لست اكتمك اني غير آسف لمفارقة هذه الحياة .. والاسف الوحيد الذي اشعر به هو اني لم اقابل فوستا ، واقول لها ما اريد قوله قبل ان افارق حياتي .. ولكني اجد نفسي مسرورا ان قمت بواجبي نحو بلاهي فانتزعت الوصية التي كان يستطيع بواسطتها فيليب الثاني التدخل في شؤون فرنسا والسيطرة عليها .. فهل قمت انت بواجبك مثلي ؟ » .

ـ ما معنى هذا السؤال ؟

ـ لقد سمعتك غير مرة تقول .. ان عليك واجبات يجب ان تقوم بها .. ومن المؤكد انك لم توفق الى القيام بها حتى الآن .. ولهذا فأنت ستموت مقهورا معذبا ، واما انا فسأموت راضيا فرحا .. ولهذا قررت عدم البحث معك في مسألة الخروج من هذا المكان ، وتركت لك الخيار في ان تقرر مصيرك بنفسك .

قال باردالیان هذا الكلام .. ثم اغمض عينيه كمن يريد النوم .

★ ★ ★

اخذ المفتش الاعظم يدرس موقفه .

فكر بسرقة الخنجر حين يتأكد من نوم باردالیان وقتله .. ثم يفر هاربا من هذا المكان المرعب .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ولكنه خشي ان يقبض عليه الفارس قبل ان يتمكن منه فتكون هذه آخرته .

واخيرا قرر فيما بينه وبين نفسه ان ينتظر نوم الفارس ، ليزحف من مكانه الى الباب السري وينجو بنفسه .. فاذا نجح انقذ حياته وقضى على باردالیان .

واخذ يزحف بكثير من الحيطة والحذر نحو الجهة التي يقصدها ، ولكن باردالیان ما لبث ان فتح عينيه وقال له :

ـ لقد عرفت المكان الذي يجب عليّ ان ابحث فيه عن سر الباب الخفي .. وقد عرضت عليك الخروج سوية فرفضت ، فتعال اجلس الى جانبي ، وبعد موتك سأذهب الى الجهة التي قصدتها وأبحث بنفسي عن الباب .. فقد انجح .. واذا حاولت حركة جديدة ستضطرني الى اغماد خنجري في صدرك ، وهو ما اسف له كل الاسف .

فعضّ المقتش على شفتيه ، وأدرك انه لن يستطيع شيئا مع خصمه العنيد .

عاد وجلس بالقرب من باردالیان .

واخذ يفكر في مصيره والمشاريع التي يحلم بها ، والتي سيقضي عليها موته القضاء المبرم .

كان اول رجل في اسبانيا بعد الملك تهابه الدنيا ، ويخافه الجميع .

واما الآن فقد اصبح سجينا في قبر من القبور التي اخترعها لاعدائه ، وقد يقضي فيه على نفسه ، اذا لم تحدث معجزة تنقذه من عدوه العنيد .

وفكر في البابا الجديد الذي كان يريد ان يختاره من انصاره .

وما سيكون امره حين يعرف الناس ان خصمه باردالیان قد تغلب عليه وقتله قتلة مرعبة مخيفة .. واية سخرية سوف تلحق باسمه .. وكم سيضحك عليه خصومه ويهزأوا به .

وقدّر في نفسه ان باردالیان قد يعثر على الباب السري ويخرج سالما من الدير بعد موته .

نعم ان العثور على المحرك الساكن لم يكن هينا ، ولكن باردالیان بذكائه العجيب قد يصل اليه .

واخيرا قرر موقفه وقال لباردالیان :

ـ لقد فكرت في موقفنا ايها الفارس ، واذا وافقت على بعض الشروط اخرجتك من هذا المكان حالا .

فقال باردالیان بهدوء مرعب :

ـ مهلا فاني غير متعجل في امري .. لان لي شروطا اريد تقديمها لك ، غير اني اريد البحث في شروطك اولا ، وان كنت على يقين من معرفتي بها .

اجفل المقتش الاعظم حين شاهد باردالیان لا يحرك ساكنا للخروج من هذا المكان ، ويطلب منه بحث شروطه اولا ، فهل كان والحالة هذه ينتظر موته ليخرج من السجن وحده وبدون مساعدته ؟

وتمالك اعصابه وسأل الفارس :

ـ تفضل بعرض شروطك لاقول لك رأيي فيها .

فقال باردالیان :

ـ لقد انجزت عملي في اسبانيا .. وسأغادرها بعد قضاء بعض الامور .. واظن اني تقدمتك بأحد الشروط الذين تريد عرضها عليّ .

ـ لقد صدقت فان هذا احد شروطي .

ـ اذا كان الامر كذلك فاليك ما اطلبه منك ، اريد قبل كل شيء ان لا يزعجني احد اثناء اقامتي القصيرة في اسبانيا ، وان يكون وداعي لائقا بسمثل ملك فرنسا .. كما لا اريد ان يتعرض احد من الناس لابن الدوق كارلوس المعروف بالدون سيزار .. التوريرو .

ـ هل عرفت سر هذا الشاب ايضا ؟

ـ نعم اني اعرفـه ، واعرف ما هو اهم منه .. واشترط ايضا ان يسمح للدون سيزار وخطيبته جيرالدا بمغادرة اسبانيا بحرية تامة تحت رعاية السفير الفرنسي ، كما اطلب محافظة على كرامـة حفيد الملك الذي سيعيش في بلد اجنبي ، ان يعين له راتب كاف ليعيش موفور الكرامة ، واترك لك تقدير هذا المبلغ ، وفي مقابل ذلك اعدك وعدا صادقا بأن هذا الامير لن يحـاول العودة الى اسبانيـا ، وان سره سيبقى مكتوما عن الجميع .

ـ اتتعهد لي ايها الفارس بأن الامير لن يأتي عملا في المستقبل ضد العرش ، ولن يحاول العودة الى اسبانيا ؟

ـ نعم اعدك .. وانا واثق مما اقول .

فقال اسبينوزا وهو يفكر :

ـ اعتقد ان هذا احسن حل لمشكلتنا المعقدة .

فقال باردااليان :

ـ ولا اظن ان فيما اقترحته عليك ما ينافي الانسانية والعدالة ؟

ـ لقد وافقت على كل طلباتك .

ـ اذن لم يبق علينا الا مغادرة هذا المكان .

فنهض اسبينوزا من مكانه وقال لباردااليان :

ـ ما هي الضمانات التي تطلبها ؟

ـ يكفي ان تعدني كنبيل شريف بأن تعمل على تنفيذها .

ـ اني اعدك بذلك .

وفتح المفتش الاعظم الباب السري ، وخرج الرجلان يجتازان كثيرا من الحدائق والغرف الواسعة ، حتى وصلا الى الطريق فسأله المفتش :

ـ هل تنوي الاقامة في النزل الذي كنت فيه ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ اظنك تعلق اهتماما كبيرا على (جيرالدا) ؟

ـ انها خطيبة الدون سيزار الذي احبه حبا عظيما .

ـ اذا كنت تريد خـلاص الدون سيزار فاذهب الى منزل السرو حيث تسكن فوستا ، واما (جيرالدا) فاذا لم تجدها حيث تركتها فاذهب الى جهة الباب المقابل وتجاوز الجبانة وبعد ان تقطع مرحلـة وانت سائر على الاقدام تجد قصرا عظيمـا ، وهو الذي اختاره مليكنا لقضاء الصيف .. تعـال غدا قبل الساعة الحادية عشرة الى هناك ، فتجـد من تفتش عنها .. واحذر ان تأتي بعد الوقت الذي عينته لك .

فقال باردااليان :

ـ شكرا جزيلا .

ـ اذهب في هذا الطريـق .. فتصل بعد قليل الى ساحـة سان فرنسيسكو .. ولكن عليك ان تعـرج على باب الدير قبل ذلك لتلقي شخصا في انتظـارك ، وسيسره كثيرا ان يراك .. لاني رأيته يزور هذا المكان يوميا ، ويمضي الساعات في انتظارك .

ولما انتهى المفتش من كلامه ، ودع باردااليان ، ومضى في سبيله .

★ ★ ★

تنفس باردااليان الهواء النقـي بملء رئتيه وبعد ان اصبح حـرا وحده .

وكان اول ما فعله ان ذهب يبحث عن القزم عند باب الدير كما علم من اسبينوزا ، وهو متأثر لوفاء هذا الانسان الضعيف الذي لو استطاع

لما تأخر عن مساعدته ، فلما لم يستطع وقف على باب الدير ينتظره ويتنسم اخباره .

اخذ يبحث عن القزم لما وصل الى المكان ، فلما لم يجده فكر في العودة من حيث اتى ، وهو يقول في نفسه :

ـ لا بد ان القزم سئم الانتظار فغادر المكان .

وفي هذه اللحظة سمع صوتا عرفه حالا يقول له :

ـ اتبعني يا سيدي .

تبع القزم وهو صامت ، متحير من عدم رؤيته في اول الامر ، والقزم ماض في طريقه لا يلتفت الى خلفه حتى دار حول سور الدير ، ودخل في عدة اروقة ضيقة وهناك توقف قليلا ، وقبض على يد بارداليان وهو يقول :

ـ لقد كنت واثقا انك ستفوز عليهم كلهم ، وانك ستخرج ظافرا من هذه المعركة .

فشكره بارداليان ، وشد على يده ، مؤكرا له صداقته وحبه .

وبعد قليل وصلا الى نزل البرج الذي ينزل فيه بارداليان ، فقرع الفارس الباب قرعا شديدا فأقبلت حنة ، ولم تكد ترى الفارس والقزم حتى لمعت عيناها وتورد خدها وضمت يديها الى صدرها وهي تهتف :

ـ يا الهي .. هذا هو سيدي الفارس .. وكادت تسقط الى الارض من فرط دهشتها ، لو لم يأخذها الفارس بين يديه ويرفعها كما لو كانت طفلة ، ويذهب بها الى غرفتها الخاصة ، وهو يقول لها :

ـ عليك ان تعلمي يا عزيزتي اني اكاد اموت جوعا ، كما عليّ ان انام بعد ذلك ، لاني صرفت خمسة عشر يوما دون ما نوم ولا طعام .

صاحت (حنة) :

ـ يا الهي .. كيف احتملت هذا ؟

وصاح القزم :

ـ ويل للاشقياء ، لقد كانوا يريدون تعذيبك جوعا .

وقبل ان تذهب حنة الى المطبخ لتحضير الطعام قال لها بارداليان :

ـ لقد قلت لك قبلا اني اعتبرك بمثابة اخت لي .. وقد جرت العادة بين الاخوة في فرنسا ، ان يقبّل الشاب اخته بعد غياب طويل .. فهل تريدين معاملتي كالفرنسيين ؟

قالت وهي تضحك :

ـ افعل هذا بكل سرور .

وقدمت خديها لبارداليان فقبّلها ثم اشار الى القزم وقال :

ـ واذا كنت تعتبرين صديقي هذا بمثابة اخ لك فقبّليه ايضا .

فاحمر وجهها ، وجمدت في مكانها ، وبدت عليها امارات الارتباك .

ولما شاهد القزم حالتها اصفر وجهه ، ولم تعد قدماه تساعداه على الوقوف ، واغرورقت عيناه بالدموع ، فتظاهر بارداليان بالغضب وقال :

ـ ما الذي تنتظران .. هـ لمن الصعب تقبيل القزم ؟

ودفع القزم نحو (حنة) وهو يقول له :

ـ تقدم ايها الاحمق .. فانت تكاد تموت شوقا للحصول على قبلة منها .

وانحبس لسان القزم وقال :

ـ حنة .

وكأنما كان يستأذنها ليقبّلها .. فاكتفت (حنة) بأن قالت له :

ـ لويس .

وكان هذا هو اسمه الصغير .. ولم يتحرك احدهما من مكانه .

وصاح بارداليان :

ـ الاجل قبلة صغيرة تترددان .. ودفعهما بين ذراعي بعضهما ،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وهو يضحك في سره ، فتبادلا القبلات ، وحنة تبكي ، فارتجف القزم خوفا وصرخ :

ـ بربك لماذا تبكين ؟

ورأى باردالیان ان عليه ان يتدخل ثانية ، فقبض على كتف القزم وطرحه تحت قدمي حنة ، فتجرأ المسكين ، وسألها :

ـ لماذا تبكين ؟

فهمست حنة بصوت منخفض :

ـ منذ خمسة عشر يوما لم أرك ايها الشرير ، فأين كنت كل هذه المدة ؟

وقال باردالیان لنفسه :

ـ لقد اعترفت بسرك ايتها الحسناء ، وكان غيابه عنك سبب اصفرارك .

وقال القزم :

ـ لم يكن الذنب ذنبي يا سيدتي فانما لم استطع ..

فقاطعته :

ـ بل قل انك فعلت ذلك عمدا ، الم تتفق على العمل معا لانقاذه فاما ان تفوز او نموت .

وقال باردالیان لنفسه :

ـ ترى ما معنى هذا الكلام ؟

« وهل كان موتي سيكون سببا لموت هذين الملاكين ؟ »

وقال القزم متوسلا :

ـ لم أرد موتك يا سيدتي ، لاني لم اكن لاستطيع احتمال ذلك .

فقالت له :

ـ اذاً كيف فضلت الموت وحدك ايها الشرير ، ولو اصابك أذى

ومت . لكنت انا تبعتك على الاثر اذاً .. وقطعت عبارتها وحسب القزم انها تريد ان تقول انه لو مات الفرنسي لماتت بعده .

وتدخل باردالیان وقال لحنة :

ـ لعلك نسيت اني اكاد اموت جوعا .

★ ★ ★

اسرعت حنة تعدو الى المطبخ لاعداد الطعام المطلوب .. فأقامت النزل واقعدته ، وشغلت كل الخدم لاعداد الطعام للفارس الشجاع .

وفيما كان باردالیان يتناول طعامه ، قصّ عليه القزم كل ما يعرفه من الاخبار .

وكيف انه عثر على امر موقع من الملك على بياض ، فخطر له ان يملأ فراغه ويدخل بواسطته الى الدير ، لينقذ باردالیان ولكنه كان عاجزا عن تنفيذ هذا الامر بمفرده ، فقرر الاستعانة بالدون سيزار ، الذي علم انهم نقلوه من البيت الذي وضعوه فيه اولا ، الى منزل السرو .. وقد سرّه انتقال التوريرو الى هذا المكان لعلمه بمداخله ومخارجه .

وقد ذهب الى المنزل وبحث في كل اقبيته ولكنه لم يعثر على اثر له، ففكر ان يكون في الطابق العلوي ، ولكن الطابق كان محاطا بالحرس ، فلم يستطع الوصول اليه ، خصوصا وان سرفانتس غادر المدينة بمهمة حكومية الى (قادس) .

واخبره ان احد الرهبان ادخله الى حديقة الدير حيث بعث له برسالته ، وهو يرجو ان يتمكن من انقاذه ، فقرر ملازمة الدير لعله يقع على طريقة يدخل منها الى داخله .

اما (جيرالدا الحسناء) فقد عرف من مراقبة كريستوبال وبعض

رجاله انها سجينة في القصر الصيفي الملكي، وانها معرضة لأشد الاخطار.. لان صاحب اللحية الشقراء يريد اختطافها بعد ان شفي من جراحه .

هذا كل ما قصه القزم على باردالیان .

وقد سمعت (حنة) هذا الحديث واعجبت بذكاء صديقها واخلاصه. ولاحظ باردالیان اعجابها فقال للقزم :

ــ هل تعرف يا صديقي انك شجاع مقدام ، تفضل على كثيرين ممن يدعون الجرأة والشجاعة .

وسرّ القزم بهذا الاطراء يصدر عن باردالیان .

ومضى باردالیان يقول :

ــ ولتعلم بأن شهادتي لك تعادل الف شهادة .. وعليّ ان ادربك على امتشاق السيف كما هو شأن الابطال الاقوياء .

وقفز القزم من مكانه فرحا لهذا الاطراء ، وسأل باردالیان :

ــ هل تريد يا سيدي حقا ان تعلمني اصول حمل السيف ؟

قال :

ــ طبعا .. وسأبدأ بعد هذا الطعام .. لان القليل مما سوف اعلمك اياه قد ينفعك في الحملة التي سنقوم بها الليلة وصباح الغد .

واصفر وجه حنة ، وتظاهر باردالیان انه لم يفطن لذلك .

وطلب منها ان تأتيه بسيفين ، ففعلت ، وقام باردالیان بتدريب القزم على حمل السيف واستعماله ، فلم يلبث هذا ان تعود على قبضته .

واخذ يفيد من اساليب باردالیان في الحرب والقتال .

ولما اقبل الليل اوقف باردالیان دروسه ، وتقلّد سيفه واخذ القزم معه ، حيث ذهبا فدارا ساعتين حول مجاهل منزل السرو ثم عادا الى النزل ، فوجدا (حنة) بانتظارهما ، فسألها باردالیان ان تذهب به الى غرفته ليأخذ نصيبه من الراحة استعدادا لعمل الغد .

ــ ٧ ــ

انتصار برداليـــان

افاق باردالیان في الساعة السادسة صباحا ، فارتدى ثيابه ، واحس بنشاطه يعود اليه ، كأنما لم يلق انواع العذاب التي مرت به ، وغادر النزل حيث قصد منزل بائع اسلحة ، اشترى منه سيفا قصيرا يصلح للقزم، ويمكّنه من استعماله على الوجه الاكمل .

ولما عاد الى المنزل ، لم يجد القزم فيه .. ولكن هذا ما لبث ان عاد وذهب الى غرفة باردالیان ، حيث اخبره ان صاحب اللحيـة الشقراء قد غادر القصر مع عشرة من رجاله ، بينهم كريستوبال ، وانهم في طريقهم الى القصر الصيفي ، وقد تبعتهم وعرفت طريقهم .

فابتسم باردالیان وقال له :

ــ سوف نلحق بهم .. ولكني أريد قبل ذلك ان أعطيك درسا ثانيا في حمل السيف واستعماله .. ريثما يأزف الوقت اللازم للعمل .

وبدأ الدرس .. واظهر القزم رغبة عظيمة في الافادة من معـارف استاذه .

وقال له باردالیان ، بعد ان اعطاه السيف القصير الذي اشتراه له :

ــ ان جسمك لا يساعدك على استعمـال السيف الطويل ، ولهذا قررت ان اعلمك استعمال هذا السيف القصير لتصد به اصحاب السيوف الكبيرة الطويلة .

وبعد ان انتهى الدرس ، توجه الصديقان الى القصر (الملكي الصيفي) حيث كانت تقيم جيرالدا .

وبكت حنة لفراقهما ، وقلقت عليهما ، ولكنها ما لبثت ان تمالكت نفسها ، فذهبت على التو الى غرفة خادم لها ، يدعى (جوزه) وطلبت منه ان يعد لها عربة صغيرة وجوادا قويا ، وضع فيها اكياسا من التبن ، وفاد هو الجواد ، وركبت حنة وخادمتها بربارة في العربة ، بعد ان غطت وجهها ، وتوجه الجميع في طريق القصر الصيفي .

وكان القصر فخما قديم العهد ، يشبه قلعة منيعة الاسوار ، وقد بناه العرب حين افتتحوا اسبانيا ، فلما غادروها ، اتخذه ملوك اسبانيا لقضاء فصل الصيف فيه ، ولكن الملك فيليب الثاني لم يكن يقيم فيه الا نادرا .. فينتهي حرسه الفرصة للذهاب الى المدينة وقضاء السهرات .

وكانت الساعة تقارب العاشرة صباحا لما وصل بارداليان والقزم الى الهضبة التي تشرف على القصر ، وكان هذا الوقت قبل الموعد الذي عينه له المفتش الاعظم ، بساعة من الزمن .

وقد فعل بارداليان ذلك ليدرس المكان ، ويستعد لكل المفاجآت .

وكان لا بد لكل شخص يريد مغادرة القصر ، ان يمر من امامه ، لهذا كان يستحيل على (جيرالدا) ان تغادره دون ان يراها ، ويرى من معها .

وكان واثقا الى هذا ان صاحب اللحية الشقراء لن يعتدي على الفتاة وهي في قصر الملك ، ولهذا اطمأن من هذه الناحية ، وبقي عليه انتظار الفرصة .. حتى اذا انقضى الوقت المعين ذهب الى القصر وسأل عن الفتاة بنفسه .

وقد اوقف بارداليان القزم لمراقبة الطريق في مكان مرتفع خلف صخرة حجبته عن الانظار ، حتى يشاهد باب القصر الكبير من مكانه ، وحتى لا يعرّضه لخطر هجوم احد من رجال صاحب اللحية عليه .

كما اوصاه ان لا يغادر مكانه الا اذا دعاه اليه ، ثم ذهب فوقف على مقربة من جسر القصر ، واخفى نفسه بين الاعشاب .

وبعد قليل سمع اصوات السلاسل ، ورأى الجسر المتحرك ينخفض على مهل فتبسم ابتسامة الفوز ، وامتشق حسامه وتأهب لاستقبال اعدائه .

★ ★ ★

واقبل القادمون من القصر .. وكان اولهم ذو اللحية الشقراء يحمل (جيرالدا) بين ذراعيه التي كانت نائمة او مغمى عليها ، يحيط به جماعة من الجند المسلحين وخلفه كريستوبال وباريكون .

لم يأبه بارداليان لعدد القادمين .

كان همه صاحب اللحية دون سواه .. و (جيرالدا) الحسناء المغمى عليها .

ترك الجماعة يمرون امامه ، حتى اذا ارتفع الجسر بعد خروجهم وانقطع اتصالهم بالقصر ، تقدم الى منتصف الطريق وصاح بهم :

ـ ممنوع المرور من هذا المكان .

كان غريبا ان يصدر شخص واحد مثل هذا الامر لجماعة من المسلحين .. فلم يصدق ذو اللحية ما سمعته أذناه ، ورأته عيناه ، وخيّل له ان خلف بارداليان جماعة يحصونه فأمر رجاله بالوقوف حالا .

ولما ادرك بعد ذلك ان بارداليان وحيد ابتسم ابتسامة رهيبة ، فقد أتت له الظروف بعدوّه ليقع بين يديه ، ولم يبق عليه الا ان يأمر رجاله بالقبض عليه وتقييده بالحبال ، ثم يتخلص منه بطعنة من خنجره .

ولما استقرت هذه الفكرة في رأسه أراد ان يتلهى ويعبث قليلا بخصمه فصاح برجاله :

ـ دعونا نسمع ما يريده هذا اللص فاذا كان بحاجة الى بعض المال

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فليلق له احدكم بكيس دراهمه .

وهتف باردالیان يقول له هازئا :

ـ لو كنت راغبا في كيس دراهمك ايها القذر لكنت اخذته منك يوم انقذت حياتك الشقية من قرون الثور الهائج .. الذي القاك ارضا وكاد يقضي عليك .

ولم يكن صاحب اللحية يتوقع هذا الجواب ، الذي حقّره امام رجاله ، ففقد ثباته وصاح يقول :

ـ الويل لك ايها الشقي ، لقد ذكرتني بهذا الحادث الذي زادني كرها وبغضا لك .

وقال باردالیان :

ـ لو كنت املك عصا في هذه اللحظة لجعلتك تقفز عليها ايضا .

ـ دعني امر .. والا فالويل لك .

ـ قلت لك ان المرور محظور من هنا .

قال هذا وسدد حسامه الى صدر عدوه ، فطرح ذي اللحية الفتاة ارضا ، وشهر سيفه وهجم على باردالیان وقد أعماه الحقد والغضب ، واقتدى به رجاله الباقين ، فشهروا سيوفهم واسرعوا يريدون تطويق عدوهم ...

وبمثل لمح البصر انقض الفارس على خصمه وطعنه بسيفه طعنة نجلاء اخترقت صدره وسقط صريعا الى الارض .

وقبل ان يفيق رفاقه من دهشتهم كان باردالیان قد هجم على كريستوبال ، وطعنه بحسامه طعنة اصابت وجهه واطارت قسما منه ، كما جرح باريكون بعده ، فلم يبق امامه غير رجاله وهؤلاء كانوا من الجنود المستأجرة الذين لا يحاربون للموت وانما للنهب والسلب .. فاذا انعدم املهم في السلب كانوا اول الهاربين ..

وصاح باردالیان بعد ان اصاب الثلاثة :

ـ من منكم يريد التعرف على سيفي ؟

وفجأة سمع الجميع صرختين وصوت سقوط رجلين من افراد العصابة ، فلما سمع رفاقهم صراخهما ولوا الادبار هاربين ، ولم يبق في ساحة المعركة الا جثة ذي اللحنة الذي فقد حياته ، وكريستوبال وباريكون اللذان اغمي عليهما ، بعد ان اصيبا بجراح من سيف باردالیان .. وجيرالدا الحسناء التي كانت مغمى عليها .

★ ★ ★

وكان القزم قد خالف الاوامر التي صدرت اليه وفارق مكانه .. لما شاهد باردالیان قد انتصر على خصومه ، انسل على قصره بين اقدام رجال ذي اللحية فظن هؤلاء ان حيوانا شرسا يهاجمهم فتولاهم الذعر ، وخافوا ، وهربوا .

وصاح باردالیان وهو يضحك مشجعا القزم ، وتقدم نحو (جيرالدا) يفك قيودها .

وصاح القزم في هذه اللحظة يحذره .

والتفت الفارس فشاهد كريستوبال الذي عاد الى وعيه في هذه الاثناء يتقدم نحو الفارس يريد طعنه بخنجره .

ولكن القزم تدخل حاملا سيفه فأصابته طعنة كريستوبال ، كما اصابت كريستوبال طعنة سيفه فخر ميتا .. وأصيب القزم بجرح أسال دمه ، فجن جنون باردالیان ، وأمسك القزم بيديه فهتف هذا يقول :

ـ اني اموت مسرورا .

واغمي عليه قبل ان يستطيع اتمام عبارته ، فنزع عنه قميصه وفحص جرحه ، فوجده سليما فسر سرورا عظيما وقال لنفسه :

ـ لقد نجا من الموت باعجوبة ، وسيشفى من جرحه بعد اسبوع ، ومع هذا فاني خائف اذ كيف يكون باستطاعتي حمله وحمل جيرالدا .. هذه مغمى عليها .. وهذا جريح .. يحتاج الى العناية .. ونظر حوله لا

يدري ما يفعل .

وفجأة شاهد عربة صغيرة تقبل من بعيد .. فطلب من سائقها الوقوف ، فوقف .

وحمل باردالیان الفتاة بيد ، والقزم باليد الاخرى وتقدم نحو العربة .

فلما قاربها بدا السرور على وجهه حين شاهد (حنة) فيها ، واسرعت هذه عند رؤيته ولما شاهدت القزم جريحا سألته :

ـ ويلاه هل مات ؟.

ـ كلا فهو لم يمت .

وحمل الفتاة الى العربة ، والقى بالقزم على عشب الارض ، فركعت حنة امامه تبكي وقد جحظت عيناها ، واخذت رأسه بين يديها ، واخذت تناديه باسمه ، حتى استفاق من اغمائه ، وشاهد حنة تضمه الى صدرها ، والفارس يفحص جرحه ويضمده فلم يعد يشعر بألم ، وسألها عن سبب بكائها .

فأجابته :

ـ كيف يطاوعك قلبك يا لويس على القاء مثل هذا السؤال عليّ ؟

ـ لا تبكي فخير لي ان اموت من ان اكون سببا لازعاجك .. اما وقد قضي عليّ بالموت فاعلمي اني كنت احبك .

فقالت وهي لا تزال تبكي :

ـ وانا كنت اشاطرك هذا الحب .

ـ ولكني لم اكن لاحبك اخ لاخت ، وانما كنت اعشقك واريد ان تكوني زوجتي .. وكنت احبك اكثر من نفسي .

فقالت :

ـ وكذلك انا كنت احبك .. لا حب اخت لاخ .

اعادت هذه الجملة الى الجريح بعض قوته فرفع رأسه يسألها :

ـ هل صادقة فيماتقولينه أم تريدين تشجيعي بسبب ما انافيه الان ..

فضمت رأسه الى صدرها وقالت :

ـ لقد كنت دائما اشعر بحبك يا لويس .. ولم احب احدا سواك .

وبكى القزم من الفرح .. وقال :

ـ ما أسوأ حظي .. فاني لم اعرف هذه الحقيقة الا في ساعتي الاخيرة .

صاحت :

ـ بربك يا لويس لا تمت فأنا احبك .. وسأموت بعدك .

وأغمي عليه مرة ثانية ، وجنت حنة ، وهتف باردالیان يقول لها :

ـ لا عليك فانه لن يموت وسيشفى قريبا .

وفتح القزم عينيه عند سماعه هذه العبارة وقال :

ـ لقد صدق سيدي الفارس ، فاني لن اموت .. ولكن هل تظلين على حبك لي فيما اذا بقيت حيا ؟

قالت :

ـ يا لك من قاسي القلب الا تشفق عليّ وترحمني ؟

وقال باردالیان :

ـ اتريد معرفة ما سوف يكون .. ستتزوجان قريبا وترزقان غلاما .

فاحمر وجه حنة ، واستغرق القزم بأحلامه ، وهو في اشد حالات السعادة والسرور .

★ ★ ★

كان همّ حنة بعد عودتها الى النزل ان استدعت طبيبا لفحص القزم ، فكان تعليقه بعد فحصه ، ان الجرح هين ، وان الجريح سوف يشفى بعد اسبوع .

ولما اطمأن بال باردالیان على صحة صديقه القزم غادر النزل ملتفا بردائه رغما عن الحر الشديد متوجها نحو الوادي الكبير بخطى سريعة وهو يبتسم ابتسامة رهيبة ويقول في نفسه :

ـ لقد جاء دورك يا فوستا الآن .

وكانت فوستا بعد القبض على باردالیان قد راحت تقيم في قصرها الفخم في ساحة سان فرنسيسكو محاولة نسيان الماضي ، حاصرة همها في الدون سيزار الذي أرادت تنصيبه ملكا على اسبانيا والزواج به لتشاطره امجاده وملكه .

وقد سارت الامور حتى الآن كما اشتهت وأرادت .

فباردالیان لم يعد يخيفها واختفى من الساحة العامة .

وجيرالدا اصبحت في قبضة صاحب اللحية وسيفعل بها ما يشاء .

واذا كان هناك ما يقلقها فهو ان اسبينوزا كان عالما بكل تفاصيل المؤامرة التي تدبرها ، وان الدوق دي كسترانا رئيسها المعروف عند الناس ، وانها هي الرئيسة السرية التي تلعب بالجميع من خلف الستار .. وقد حاولت كثيرا ان تعرف رأيه في الموقف ، حين تجتمع اليه ، فكان يتكلف الصمت والكتمان .

واحست في المدة الاخيرة انها اصبحت تحت المراقبة ، وان هناك من رجال الملك من يتولى حراستها عندما تحاول مغادرة قصرها ، فاذا اعتذرت بأن لديها حرسها الخاص ، قيل لها بأن هذه ارادة الملك الذي اراد ان يخص ضيفته الكريمة بالمزيد من الاكرام والعناية .

وكان ان التزمت السكوت طيلة الايام الخمسة عشر التي صرفها باردالیان في سجنه تدرس موقفها ، وتذهب في كل يوم لمقابلة المفتش الاعظم فتسأله عن باردالیان وحالته .

وفي مساء اليوم الذي تمكن فيه باردالیان من انقاذ (جيرالدا) من مخالب ذي اللحية والقضاء عليه ، ذهبت فوستا لزيارة اسبينوزا وسألته عن باردالیان فأجابها :

ـ لقد انتهى عذابه .

ـ هل تقصد انه مات ؟

ـ قلت لك ان عذابه قد انتهى .

وبعد ساعة من اجتماعها الى اسبينوزا ، جلست في غرفة منزلها الكائن في البرية .. وهي غرفة لها باب سري يؤدي الى النفق الموصل لقصرها الفخم .

وكانت تتحدث الى التوريرو الذي ظهر في حديثه معها حزينا معذبا ، اخبرها بأنه ضيق الصدر لمعرفته سر مولده ، وان نسبه يتصل بالملك ، وكان يفضل ان يكون رجلا من عامة الناس لا شأن له بالسلطان والملك .

وانه رجل لا مطامع له ، ولا يريد مقاومة الملك ومحاربته للوصول الى عرشه .

وا ذكل امانيه ان يسافر الى فرنسا مع صديقه باردالیان وخطيبته جيرالدا ، حيث يقضي بقية ايامه فيها .. بعيدا عن السياسة ومشاكلها .

واهتزت فوستا حين سمعت هذا الكلام وقالت :

ـ يا الهي .. هل قدّر علي ان لا اصادق الا رجالا بأخلاق النساء .. ان باردالیان الذي تريد مرافقته ايها المجنون الاحمق قد مات مجنونا .. وانا الذي دفعته لهذه النهاية .

وثب التوريرو من مكانه وقال :

ـ اقسمي اذا كنت صادقة فيما تقولينه .

فقاطعته بشدة وهي تقول :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ دعني اتم حديثي .. وعند اول اشارة مني تسقط ولا تعود تقوم لك قائمة ، فان لهذه الجدران اذانا وحرسا يقومون بحراستي من كل جانب .. اما تلك النورية السافلة التي ترفض العرش لاجلها فقد ماتت ايضا ملطخة بقبلات ذي اللحية الشقراء ، فابق امينا لذكرها ، كما فعل باردالیان الذي بقي امينا لامرأة ميتة .

قفز الشاب من مكانه وقبض على يدها ، وصاح بصوت شديد :

ـ أعيدي كلامك .. واقسم بالله ان تكون نهايتك في هذه اللحظة.

لم تخف فوستا من تهديده .. ولا حاولت التخلص منه .. ولكنها سحبت خنجرها الصغير وقالت له بهدوء غريب :

ـ ان وكزة خفيفة بهذا الخنجر تقضي عليك وتميتك ، فان رأسه محشو بسم لا يبقي ولا يذر .

وتوانته الدهشة .. فاغتنمت هذه الفرصة وتخلصت منه وذهبت فوقفت بالقرب من الحائط وهي تقول :

ـ اعيد عليك ما قلته من ان باردالیان مات مجنونا بأمري ، وخطيبتك ماتت ملطخة بالعار بسببي وستموت من يأسك انت ايضا .

وحركت الآلة التي تفتح الباب السري .

ولكنها ما لبثت ان تراجعت مذعورة لانها اصطدمت بشخص كان يقف خلف الباب السري .

ترى هل سمع حديثها ؟

وكيف وصل الى هذا المكان ؟

★ ★ ★

كان همها الاول الآن انقاذ نفسها ، فرفعت خنجرها تريد طعن

الرجل ، ولكن هذا امسك بيدها حتى اجبرها على افلات الخنجر، واعادها الى الغرفة وهو يقول متهكما :

ـ لقد سمعت حديثك عن الموت والسم والجنون والعذاب ، فهلا تبدلت هذه الكلمات السيئة المرعبة بغيرها ؟

صرخت فوستا والتوريرو بصوت واحد :

ـ باردالیان ...

وضحك الفارس وقال :

ـ انا هو بجسمي ولحمي .. ويؤسفني يا سيدتي ان الاشخاص الذين تريدين قتلهم لا يموتون ، اني من ابعد الناس عن قتل النساء واما انت فجشرة سامة يجب سحقها ، وقد اعجزني العفو عنك المرة بعد المرة، ولا بد لي هذه المرة من عقابك حتى امنعك في المستقبل من ايذاء احد من الناس .

جنت فوستا عند رؤيته ، وظنته شبحا او خيالا ، وراحت تردد اسمه وتقول :

ـ باردالیان حي يرزق .

فقال الفارس :

ـ وكذلك جيرالدا الحسناء التي قضيت عليها بالهلاك، فقد تمكنت من انقاذها، وقتلت صاحب اللحية الذي لم يستطع ايذاءها ولا الوصول اليها.

وجن جنون التوريرو وقال :

ـ جيرالدا حية ؟

ـ نعم حية ، لم يمسها احد وهي باتنظارك .

ـ باردالیان .. يا صديقي العزيز كيف استطيع ..

ـ ارجو ان تؤجل شكرك الآن .

وكانت فوستا قد تمالكت نفسها فتناولت صفارة فضية وصفّرت

بها ، فلم يبال باردالیان بأمرها ولا برجالها ، واعطى خنجره الى التوريرو الذي كان اعزلا عن السلاح وقال له :

ـ خذ هذا الخنجر بيدك ولا تهتم بما سيجري امامك .. عليك فقط ان تحافظ على فوستا ، واذا حاولت حركة فاقتلها بدون شفقة ولا رحمة .

وبعد قليل فتح الباب ودخل اربعة اشخاص يحملون السيوف .

والظاهر انهم لم يكونوا يتوقعون رؤية باردالیان ، لانهم ما كادوا يرونه حتى جمدوا في اماكنهم .. فقال ساخرا :

ـ كم انا سعيد برؤيتكم ايها السادة .

وكان الشخص الرابع هو (بيسي لكلرك) الذي بدا الذهول على وجهه لما شاهد خصمه العنيد ، فلما شاهده باردالیان قال لهم :

ـ من هذا الذي أراه معكم .. بيسي لكلرك .. كيف تقبلون مثل هذا الرجل بينكم .. وانتم المعروفون بالنبل والشجاعة ، كيف تقبلون مثل هذا الجبان الذي لا تزال اثار لطمتي على وجهه حتى الآن .

جنّ (بيسي) لما سمع هذه الاهانة وهجم على باردالیان وتبعه رفاقه الاربعة .

ولحظت (فوستا) وهي تتبع المعركة ان باردالیان كان يديرها ويجريها وهو ضاحك باسم ، لا يتحرك من مكانه مكتفيا بسيفه ، الذي كان يرد السيوف الاربعة الموجهة ضده ، بسرعة البرق ، وكان (بيسي) أول من اصيب اذ اخترق سيف باردالیان صدره فسقط ميتا .

التفت باردالیان عندئذ الى الفرسان الثلاثة وقال لهم :

ـ اني اذكر لكم صنيعا جميلا في الماضي ، ولهذا لن اقتلكم ، ولكني قررت اعطاءكم اجازة لمدة شهر واحد مثلا ، حتى لا تضايقوني بعد اليوم .

وقبل ان ينجز عبارته صرخ سانت مالين .. اذ ان سيف باردالیان جرحه في فخذه ، فسقط صريعا .

وصاح باردالیان يقول :

ـ واحد .

ولم يكد يتم كلمته هذا حتى قال :

ـ اثنان .

وكان قد اصاب كالابر في ابطه ، فلم يبق امامه الا موتسيري الذي لمعنه في يده فأغمي عليه من الالم .

وتأمل باردالیان الفرسان الاربعة بعد ان اقتل احدهم وجرح الثلاثة الباقين ، وهو يقول :

ـ لقد كنت ادافع عن نفسي .. ولست انا المسؤول عنهم ، لاني انذرتهم اكثر من مرة ان يبتعدوا من طريقي .

واخيرا تقدم الى فوستا .

واعتقدت هذه انها سوف تموت من يده لا محالة .

فجزعت وخرت جاثية امامه وهي تقول : رحماك تقتلني .

وصاح باردالیان :

ـ اتخافين من الموت ؟

ـ كلا لست اخاف من الموت .. ولكني لا اريد ان تقتلني انت لسبب واحد .. وهو انني ام ولدك .

استولى الذهول على الفارس لما سمع هذا الاعتراف .

ومضت فوستا تحدثه بقصتها ، وكيف انجبت منه ولدا في سجن رومه ، وكيف ارسلت هذا الولد الى فرنسا مع خادمتها الخاصة ميرتيس .

وقال لها بعد ان انتهت من حديثها :

— اذا كان الامر كذلك فان ولدي موجـود الآن في مكان ما من فرنسا مع ميرتيس الخادمة .. وانت ايها الام الصالحة لماذا تركت ولدك لمصيره ، ولم تهتمي به ؟

حنت فوستا رأسها ولم تقل شيئا .

فهز رأسه وقال :

سألته : هل حصلت على الوصية ؟

— نعم .. وانت ما الذي تريدين عمله ؟

— سأعود الى ايطاليا .. وانزوي فيها .

ونظر اليها مليا ثم قال :

— الوداع يا فوستا .

فأجابته بمثل لهجته :

— الوداع يا باردااليان .

★ ★ ★

لما عاد باردااليان الى النزل وجد احد رجال المفتش الاعظم في انتظاره يحمل اليه رسالة من المفتش جاء فيها ، ان الملك فيليب الثاني يستقبـل سفير فرنسا لتوديعه في آخر ايام الاسبوع ، كما حمـل معه حوالة مالية مقدارها خمسين الف قطعة من الذهب باسم الدون سيزار تدفع لحاملها في باريس او في اية مدينة كانت من حكومة الفلاندر .

واستقبل الملك الاسباني باردااليان واكرمه ، واخبره ان اسبانيا لا تمانع في جلوس ملك النافار على عرش فرنسا ، كما قدم له المفتش الاعظم سيفا مرصعا كتب عليه .. « لاشجع فارس رآته عيناي .. » .

وكان القزم قد شفي من جراحه ، وعقد قرانه مع حنـة ، وقدّم له التوريرو هدية ثمينة .

ثم غادر باردااليان اسبانيا مع الدون سيزار وجيرالدا ، حيث اجتمع الى ملك فرنسا هنري الرابع وقدم له الوصية ، فقال له الملك وهو يرحب به بحرارة :

— اني مدين لك بتاجي مرتين ايها الفارس فسلني ما تريد ؟

— اني اطلب من صاحب الجلالة ان يسمح لي بتقـديم صديق لي اليه .. جئت به معي من اسبانيا .

— ليأت لمقابلتي متى اراد .

فقال باردااليان :

— واطلب له وظيفة فخرية في الجيش لانه ينعم بثروة طائلة ، فليس بحاجة الى راتب .. كما اريد ان يكون تحت رعاية مولاي .

— ومن يكون هذا الصديق ؟

وقص عليه باردااليان سر الدون سيزار ومولده ، فقال الملك ضاحكا :

— سوف يكون من اقرب المقربين اليّ .

« واخيرا ما الذي تطلبه لنفسك ؟ »

— اني لا اطلب شيئا يا مولاي .. سوى ان يسمح لي سيدي بأن اكون حرا .

— لا بد انك تريد القيام باحدى غرائبك ؟

— كلا يا مولاي وانما اريد البحث عن ولد .

— عجبا .. وما الذي يهمك من امر هذا الولد ؟

فحنى باردااليان رأسه وقال :

— انه ابني يا مولاي .

انتهى هذا الكتـاب

www.mlazna.com-RAYAHEEN